برتراند راسل

الزواج والأخلاق

تعريب

عبد العزيز ابراهيم فهمي

الزواج والأخلاق

برتراند رسل

الطبعة الاولى ـ سبتمبر ١٩٥٨

دار الهنا للطباعة والنشر ٤١١٢٧

الزواج والأخلاق

بقلم

برتراند رسل

ترجمة

عبدالعزيز إبراهيم فهمي



بسم الله الرحمن الرحيم

((يؤتى الحكمةمن يشاء من عباده ،
ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ،
وما يذكر الا أولو الألباب .))
صدق الله العظيم

هذا الكتاب .. ومؤلفه

تتطور بيئتنا العربية بخطى واسعة نحو التمكن من الحضارة الرفيعة ، وتساهم فى النهضة بالمستوى الإنسانى ، وهى سائرة حتما إلى المجد والقوة والعظمة ونحن فى هـــذه الآونة فى أمس الحاجة إلى الاطلاع والقراءة ، فى نهم وغزارة ، لا يقف أمامنا حد ولا مانع ، لنتمكن من مواجهة المستقبل فى ثقة واطمئنان .. غير أن هناك عقبة تقف دون الكثيرين من اخواننا وأبنائنا ، وتتمثل فى عدم تمكنهم من اللغات الحية ، لهذا كان إصدار الكتب المترجمة خدمة من أجل الخدمات التى تحتاج إليها نهضتنا ، إذ أنها تقرب موارد الفكر الأجنبية إلى المتعطشين .. لكى ينهلوا من منابعها المعرفة التى لا تحدها حدود ولا تقيدها روابط إلا خدمة الإنسانية ، والرقى بالمستوى الفكرى للأفراد ، وإقرار السلام العقلى والروحى ، حتى تسود المحبة والوئام بين الناس ، وأن ترفرف على الجميع أعلام السعدة والاستقرار والرخاء .



ومؤلف هذا الكتاب — اللورد برتراند رسل — كاتب اجتماعى ،

وفيلسوف وعالم رياضى ، وأستاذ فى فنون التربية المدرسية والشعبية من الطراز الأول ، ويمكن أن يقال إنه ليس فى العالم اليوم من هو أشهر منه فى ميدان الفلسفة والعلوم الرياضية ، وأن يقال إنه ليس فى بلاد الانجليز من هو أعرق منه نسباً وأقدم منه بيتاً .

فهو حفيد الأيرل جون رسل الوزير المشهور . وجون رسل هذا هو ثالث أبناء الدوق السادس من دوقات بدفور ، وهم فى الرعيل الأول بين أعيان الانجليز . ولا نضيف نسبه إلى علمه ، لأن نسب العالم يزيد فى مكانته ويعطيه فضلا علمياً أو أدبياً فوق فضله ، ولكننا نضيفه لأن عراقته لها دخل فى تقدير حريته الفكرية ونزعته الاجتماعية . فلو قيل إن رجلا بهذه العراقة نشأ بين قومه محافظاً شديد المحافظة ، لما كان فى ذلك من عجب ، ولكنه على هذا لم ينشأ محافظاً شديداً فى محافظته ولا محافظاً مترخصاً فيها ، بل نشأ حراً يتطرف فى الحرية ، ويذهب فيها أحياناً مذهباً لا يتخطاه المحرومون الذين يطلبونها لأنهم فقدوها .

وبرتراند رسل ، سليل اللوردات والدوقات ، يحارب الاستعمار ويثور عليه حتى ولو كان دعاة الاستعمار والوحشية هم أقطاب بلاده . ويكفى أن نذكر كيف هزه الاعتداء الأثيم الذى قامت به انجلترا وحليفتاها — فرنسا وإسرائيل — على « بورسعيد » الخالدة ، فاذا به يثور فى وجه حكومته ، ويعلن فى شجاعة رائعة سخطه عليها واستنكاره لأفعالها الغاشمة . .

فكانت صيحة حق دوت فى بلاد أعمت شهوة الاستعمار بصيرة حكامها وذهب حب السيطرة والدمار بعقولهم .

* * *

هذا هو الكاتب الأديب برتراند رسل . . . الأديب الذى يدين بالحرية وهو مالك لزمامها . . ولا ندرى هل نزيد العجب أم نزيله ، إذا قلنا إنه قد ورث هذه النزعة الحرة عن أسلافه فان أباه كان حر التفكير فى الدين والسياسة ، وقد ترك برتراند وهو فى الثالثة من عمره ، فأوصى بتنشئته على الحرية الفكرية ، وتعليمه تعليما لا يتقيد فيه بتقاليد تحد من حرية فكره . كما كان جده الأعلى من كبار دعاة الإصلاح النيابى والدينى ، وقد أخذ يناصر « كندا » حين شبت فيها الثورة ، لأنه كان يؤمن بحق المستعمرات فى حكم نفسها . . وكذلك كان كثير من جدوده فى الأجيال الغابرة من أشياع الملكية الدستورية .

وقد لقى برتراند رسل من حريته نصبا أى نصب . فقد حدث حين اشتعلت الحرب العالمية الأولى أن هب يكتب ويخطب فى استنكارها والدعوة إلى حل المشكلات الدولية بالمسالمة والمفاوضة . . وكان — إذ ذاك — أستاذاً فى جامعة كمبردج ، ففصل من منصبه ، وسيق إلى القضاء وصدر الحكم بتغريمه مائة جنيه ثم بسجنه ستة شهور ، لأنه لم يكف عن نشر دعوته بعد فصله وتغريمه ! . حتى إذا دعته جامعة هارفارد الأمريكية لإلقاء بعض المحاضرات فيها — بعد فصله من جامعته الانجليزية — وقفت السلطات

العسكرية فى سبيله ، وحالت دون تسليمه جوازاً بالسفر إلى خارج البلاد ، خشية تأثيره على الرأى العام فى الولايات المتحدة ، وهى من البلدان التى تروج فيها كتبه ومقالاته . ومع ذلك فان آراءه الاجتماعية لم تلبث أن أثارت عليه فى الولايات المتحدة جمهوراً قوياً من أتباع الكنيسة ، فحالت ضجتهم دون إقرار تعيينه لتعليم الفلسفة باحدى كليات نيويورك ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، رغم أنه كان قد قضى زمناً فى جامعتى هارفارد وكاليفورنيا أستاذاً للفلسفة .

وكما أنه من أوسع المفكرين علماً ، فإنه من أوسعهم خبرة بالأمم فى المغرب والمشرق ، لأنه تعلم الفرنسية والألمانية ، فعاش زمناً فى فرنسا وعاش زمناً فى ألمانيا ، كما رحل إلى روسيا والصين ، وقضى فترة فى البلاد الأمريكية ، وتمرس بضرورات المعيشة كما اختبر الحياة بين أعلى الطبقات وأغناها ، وجرب الاضطهاد ، كما جرب الحفاوة والإعجاب .. فهو على نصيب عظيم من الخبرة والعلم ، ومن علمه وخبرته هذين ، استطاع أن يفيض مؤلفات متلاحقة فى العلم والرياضة والاجتماع والتربية ، منها كتاب معدود بين الكتب المائة التى تستحق التقديم بالذكر عند إحصاء المؤلفات التى ظهرت فى تاريخ الحضارة منذ نشأتها ، وهو كتاب فى أصول الرياضة ، ألفه مع زميله (هوايتهد) الرياضى الفيلسوف .

وهو لا ينقطع عن الكتابة والتأليف .. بل إنه لم ينقطع عنهما حتى فى أيام سجنه ، فقد ألف كتاباً من أمتع كتبه فى مقدمة الفلسفة الرياضية وهو سجين .

* * *

هذا هو المؤلف الذى نترجم له اليوم كتابه (الزواج والأخلاق) ، وهو كتاب يعتبر ثورة على التقاليد والجمود الفكرى فى العالم . فان (برتراند رسل) كاتب جامح ، لايتقيد بالعرف ولا بالتقاليد ، بل إنه يحلل وينتقد ، ويضع الجديد من النظم والآراء ، وقد وجدت فى بعض المواقف ، من الأصوب،أن أخفف من وقع آرائه المنطلقة الجامحة فى نفوسنا الشرقية التى ترجع إلى مئات السنين . . لهذا فقد تناولت بالحذف مالا يتفق وعاداتنا من بين فصول الكتاب .

وأحب أن أنبه القارىء هنا إلى نقطة أعتقد أنها من الحقائق المسلم بها ، والمفروغ منها . تلك هى أن جميع الآراء التى وردت فى هذا الكتاب لاتقيد إلا المؤلف وحده ، وإذا كنا قد نقلناها هنا ، فانما فعلنا وفاء بأمانة الترجمة ، ولاطلاع القارىء على نواح من التفكير الغربى — لاسيما وأن المؤلف من قادة الفكر فى الحضارة الغربية — ولتوفير مادة للدراسة والبحث فى جهادنا لإعادة بناء المجتمع العربى ليتمشى مع نهضتنا فى عهد الحرية والعزة القومية .

والله ولى التوفيق

عبد العزيز ابراهيم فهمى



الفصل الأول

تقديم

عند بحث مقومات أى مجتمع — قديما كان أم حديثاً — نجد عنصرين تربطهما رابطة مشتركة، وكثيراً ما يكونان متداخلين. أحدهما: النظام الاقتصادى، والآخر: النظام العائلى، وهما على جانب كبير من الأهمية.

ومن ثم فهناك اليوم مذهبان من مذاهب الفكر ذات الأثر البالغ: أحدهما يستمد كل شىء من مصدر اقتصادى، بينما يرجع الآخر مصدر كل شىء إلى الأسرة أو الغريزة الجنسية.. الأول مذهب (ماركس)، والثانى مذهب (فرويد). وأنا شخصياً لا أعتنق أى المذهبين، إذ يبدو لى أن أيا منهما لا يفوق الآخر فى شىء.

ولا شك فى أن الثورة الصناعية — مثلا — كانت وستظل ذات أثر بعيد على المثل والأخلاق ومدى ارتباطهما بالجنس. ولست أميل إلى أن أرجح كفة العامل الاقتصادى أو العامل الجنسى، كما أنه لا يمكن الفصل بينهما بشىء من الوضوح، فالاقتصاد يبحث بالضرورة فى كيفية الحصول

على ما يسد الحاجات ، ولكن الفرد نادراً مايطاب المأكل لمصلحته الفردية فقط ، وإنما هو يجهد فى الحصول عليه من أجل الأسرة . وكما أن نظام الأسرة يتغير ، فان البواعث الاقتصادية تتغير كذلك . على أنه من المستحيل — بوجه عام — إنكار الارتباط الوثيق بين الملكية الفردية الخاصة وبين الأسرة ، لأنه ارتباط متداخل لدرجة أنه يتعذر علينا القول بأن أحدهما هو السبب والآخر هو النتيجة .

فهناك العلاقة التى تربط الأخلاق بالجنس فى بيئة معينة ، تتكون من جملة طبقات بعضها فوق البعض . فهناك — أولا — النظم التى نصت عليها القوانين ، كما تتمثل فى مسألة الزواج بزوجة واحدة فى بعض البلاد ، وتعدد الزوجات فى بلاد أخرى . ويلى ذلك طبقة لايتدخل فيها القانون . وإنما الفصل فيها للرأى العام . وأخيراً ، توجد طبقة يترك الرأى فيها — من الناحية العملية ، إن لم يكن من الناحية النظرية فقط — للتقدير الفردى .

ولا يوجد بلد فى العالم — كما لم توجد حقبة فى تاريخ العالم — لم تستند فيها النظم الجنسية إلى أسباب واعتبارات عنصرية ، اللهم إلا روسيا السوفييتية ، حيث لا تقوم النظم الاجتماعية على معتقدات خرافية أو نتيجة للتقاليد . كما هو الحال نسبياً — على الأقل — فى نظم سائر البلدان الأخرى ، على مر العصور ، والواقع أن مشكلة تحديد ما إذا كانت الأخلاق الجنسية ، أو درجة ارتباط الأخلاق بأمور الجنس ، خيرا أم شرا — من ناحية توفير الرفاهية والسعادة العامة والحياة الأفضل — مشكلة فى غاية التعقيد ، وتختلف

الإجابة عليها طبقاً لظروف متباينة . فالأخلاق تختلف فى المجتمع الصناعى المتقدم عنها فى المجتمع الريفى البدائى ، كما تختلف الظروف أيضا فى مجتمع ارتقت فيه العلوم وتقدم الطب وأصول الصحة ، عنها فى حالة مجتمع آخر تنتشر فيه الأوبئة والأمراض الخبيثة وتفتك بعدد كبير من السكان ، وعلى الأخص الأطفال قبل البلوغ . ومن المحتمل أن نقول — إذا ما ازدادت معرفتنا — أن الصفات البارزة المتعلقة بالجنس ، تختلف فى مناخ معين عنها فى مناخ آخر ، كما تختلف فى بيئة لها نظام غذائى معين عنها فى أخرى .

❋ ❋ ❋

والنتائج التى تترتب على ارتباط الأخلاق بأمور الجنس ذات أنواع متنوعة : فقد تكون خاصة بشخص معين ، وقد يكون للزواج شأن فيها ، وقد تكون عائلية ، وقد تكون عالمية . . وقد يحدث أن تكون النتائج حسنة فى بعض هذه الأنواع ، بينما تكون سيئة فى البعض الآخر . لذلك كان من الواجب استعراض جميع الظروف والملابسات قبل إبداء الرأى فى نظام معين ، ونحن فى مجال الموازنة والاختيار .

ولنبدأ بالأنواع ذات الطابع الشخصى البحت . . وهى النتائج التى يهتم بها التحليل النفسى ، وهنا يجب ألا ننظر إلى سلوك من بلغوا سن الرشد فقط . لأن القانون ينظم الروابط بين هؤلاء ، كما أن التربية — فى بواكير الطفولة — تساعد على غرس روح الاحترام للقانون ، ومن المعلوم ، أن كل

ما يحرم أو يمنع بالنسبة للأطفال فى المراحل الأولى من الطفولة ، يكون له أثر بعيد وغير مباشر ، يستمر إلى مراحل بعيدة .

والمرحلة التالية من مشكلتنا تبدأ عنـدما ننظر فى العلاقات بين الرجال والنساء ، فمن الواضح أن بعض العلاقات الجنسية له قيمة تفوق ماسواه . وقد يتفق معظم الناس على أن علاقة جنسية ماتـكون أحسن ، إذا هى قامت على عنصر نفسانى . ويبدو أنه من الضرورى — عند هذه النقطة من البحث — القاء نظرة على كل من الزواج والعلاقات الأخرى التى تنشأ خارج نطاق الزواج .

تأتى بعد ذاك مسـألة الأسرة : فلقد نشأت — فى أزمان وأمكنة مختلفة — أنواع كثيرة متباينة لجماعات يقوم نظامها على الأسرة ، ولـكن يبدو أن التفوق والغلبة كانا للزواج الدينى ، والأكثر من ذلك ، أن الزواج بواحدة — فى ظل النظام الدينى — أكثر انتشاراً من نظام تعدد الزوجات . وقد اتجهت حضارة الغرب — أو بالأحرى اتجهت الأخلاق الجنسية لدى الغرب — منذ أوائل العهد بالمسيحية ، إلى المحافظة على شرف المرأة وعفافها وطهرها . تلك الصفات التى بدونها يستحيل تـكوين الأسرة فى ظل النظام الـكنسى ، ويضاف إلى ذلك الإصرار على وفاء الرجل للمرأة ، كفضيلة واجبة فى المسيحية ، تستمد مصدرها النفسى من مبدأ الزهد وانـكار الذات وقد تأيد هذا الباعث فى الأزمنة الحديثة بفضل غيرة النسـاء ، التى قويت واشتدت منذ تحرير المرأة . وأيا ما كان الأمر ، فيبدو أن هذا الباعث

الأخير مؤقت ، نظراً لأننا — إذا ماحكمنا بالظواهر — نجد أن النساء يملن إلى تفضيل نظام يسمح بالحرية لكل من الجنسين ، على نظام يفرض على الرجال القيود التي كانت النساء وحدهن يعانينها قبل التحرر .

وفى نظام الزواج بواحدة مفارقات كثيرة . فالزيجات قد تتم باتفاق الطرفين أو باتفاق أهل العروسين . وفى بعض البلاد تشترى الزوجة ، بينما يكون الزوج هو الذى يشترى فى بلاد أخرى ، كفرنسا . وكذلك ، يوجد بعض الاختلاف فيما يتعلق بالطلاق . . فمن التطرف الكاثوليكى الذى يحرم الطلاق ، إلى قانون الصين القديمة الذى كان يجيز للرجل تطليق امرأته بحجة أنها كثيرة الكلام . . أى لأتفه الحجج .

والاخلاص والوفاء فى العلاقات الجنسية مشاهد حتى بين الحيوانات . فالأم للرعاية والتربية والأب للسعى للحصول على الطعام . ويعتبر تعاون الأب — بين بنى الإنسان — ضروريا ، لأنه ميزة بيولوجية كبيرة لازمة لنمو الأسرة ، وخصوصاً فى تلك الأزمنة التى لم تكن الأوضاع قد استقرت فيها بعد ، وبين الشعوب والقبائل البربرية الهمجية . وبازدهار الحضارة والمدنية ، انتقل دور الأب إلى الدولة بصورة آخذة فى الازدياد . وهناك مايبعث على التفكير بأنه لم تمض فترة طويلة حتى يصبح الأب غير ذى فائدة ، من الناحية البيولوجية فى أية مرحلة ، وخصوصاً بالنسبة للطبقة العاملة ذات الأجر المحدود . فإذا حدث هذا ، وجب أن نتوقع انهياراً تاماً

للأخلاق والمثل التقليدية ، لأنه لن يصبح هناك مايدعو الأم إلى أن تعلق أهمية تذكر على أبوة طفلها !

* * *

والقانون يهتم بالأمور الجنسية من ناحيتين : فهو من ناحية ، تأييد لأى لون من الفضيلة الجنسية السائدة فى المجتمع . . وهو — من ناحية أخرى — حماية للحقوق المشروعة للأفراد فى مجال الجنس . ولهذه الحماية شقان : (١) حماية النساء وغير البالغين من التعدى ومن الاستغلال الضار . . و (٢) منع الأمراض السرية . والواقع أنه لم توجه بعد العناية الشعبية الكافية لأى من هذين العنصرين .

تأتى بعد ذلك مسألة السكان : وهذه فى ذاتها مشكلة عويصة ينبغى النظر إليها من جملة نواح . فهناك صحة الأمهات ، وصحة الأطفال ، والآثار النفسية — للأسر الكبيرة والصغيرة على التوالى على شخصية وأخلاق الأطفال . . وهذا كله يمكن أن نعبر عنه بالجانب الصحى من المشكلة . ثم هناك الاعتبارات الاقتصادية الخاصة والعامة : مثل مسألة معدل الثراء للفرد الواحد — فى الأسرة والمجتمع — بالنسبة لحجم الأسرة أو نسبة المواليد فى المجتمع . ويرتبط بهذا كله ، أشد الارتباط ، توقف مسألة السكان على السياسات الدولية ، وإمكانيات استتباب السلام العالمى . وأخيراً فهناك مسألة تحسين النسل وأثرها فى زيادة أو نقصان الرصيد البشرى — خلال مختلف عمليات الميلاد أو الوفاة — فى مختلف طبقات الشعب .

ولا يتسنى تبرير أو نقد أى مبدأ أخلاقى يتصل بالجنس إلا إذا نظرنا إليه من جميع وجهات النظر المتقدم ذكرها . ويميل المصلحون والرجعيون — على حد سواء — إلى دراسة المسألة من جانب واحد أو جانبين على الأكثر . ومن النادر وجود ارتباط بين وجهات النظر الفردية والسياسية ، ومع ذلك ، فمن المستحيل الجزم بأن إحداها أهم من الأخرى . ولن يمكننا أن نقطع — استناداً إلى هذا القياس المنطقى — بأن النظام الذى يكون صالحا من وجهة النظر الفردية قد يكون صالحا كذلك من وجهة النظر السياسية أو العكس . وأنا شخصياً أميل إلى الاعتقاد بأن هناك قوى نفسية غامضة أدت بالرجال إلى اعتناق مذاهب أو نظم تتضمن تزمتاً لامبرر له ، وهذا مالا يزال سائداً بين معظم الأجناس المتحضرة فى الوقت الحاضر . كما أومن بأن التقدم فى علوم الطب والصحة أدى إلى احداث تغيرات فى النظرة الأخلاقية إلى النواحى الجنسية ، سواء من الناحية الفردية أو النواحى العامة ، بينما نجد أن الدور المتزايد الذى تؤديه الدولة فى ميدان التعليم ، يقلل من أهمية دور الأب تدريجياً عما كان عليه فى الأزمنة التاريخية الغابرة .

وبغية الوصول إلى تقرير صادق طبيعى للنظام الحالى ، فسنستعرض أولا بعض النظم التى وجدت فى الأزمنة الغابرة أو التى قد توجد حالياً فى بعض المناطق المتأخرة أو بين بعض الأجناس البشرية المتخلفة . ثم ننتقل بعد ذلك إلى تحليل النظام السائد الآن فى بعض المدنية الغربية . وأخيراً ، نعالج الأسس التى يجب أن يعدل إليها هذا النظام ، والأسس التى نرجو أن يتم هذا الإصلاح بمقتضاها .

الفصل الثانى

عندما ينسب الشغل إلى الأم

ينشأ عن الزواج عادات ، ترجع إلى عناصر ثلاثة يتداخل بعضها فى بعض دائماً ، ويمكن أن نصفها بأنها : غريزية ، واقتصادية ، ودينية .

فنحن نجد أن كثيراً من القوانين والعادات المتعلقة بالمسائل الجنسية ترجع — غالباً — إلى أصل دينى وبقدر نفعها يكتب لها البقاء بعد أن يكون الأساس الدينى الذى قامت عليه قد اندثر وغلبه النسيان . ولعل من الصعب الفصل تماماً بين العادات التى ترجع إلى أصل دينى وتلك التى ترجع إلى الغريزة ، ولعل الاديان التى يكون لها تأثير قوى على أفعال البشر ، تستند بصفة عامة إلى أساس من الغريزة . فكل من الحب والكراهية عاطفة غريزية ، ولكن الدين بين أن الكراهية عاطفة أثيمة تنطوى على خطيئة ، ويجدر بالمجتمع التحرز منها والبعد عنها ، فى حين أن الحب عاطفة فيها تسامح وفيها مودة وفيها ألفة واشراقة .

ويبدو دور العنصر الغريزى فى العلاقات الجنسية أقل كثيراً من حقيقته

مثال ذلك أنه كان من العادات الشائعة لدى بعض الأقوام المتحضرين نسبياً — وليس لدى البدائيين وحدهم — أن تفض البكارة رسميا (وفى بعض الأحيان علناً) بواسطة كاهن القبيلة أو القساوسة. أما فى البلاد المسيحية ، فقد أصر الناس على أن يكون هذا العمل وقفاً على العريس وحده. ويعتبر مقت المسيحيين لهـــذه العادة الدينية عملا غريزيا بطبيعته . وتبدو كذلك ، عادة إعارة الزوجة للضيف كرمز لكرم الضيافة — عملا تأباه الغريزة بالفطرة بالنسبة للأوروبى الحديث ، ومع ذلك فانها كانت عادة شائعة فى الماضى ، والواقع أن الغريزة تعتبر شيئا غامضا بالنسبة للبشر ، يسهل تحويله عن مجراه الطبيعى . وهذا هو الوضع الذى تستوى فيه المجتمعات المتأخرة البدائية مع المجتمعات المتمدينة . فان كلمة (غريزة) تكاد تكون الكلمة الدقيقة التى يمكن استعمالها على أن تنطبق على أى شىء راسخ لا يتغير ، كالسلوك الإنسانى فى المسائل الجنسية . ولعل العمل الوحيد الذى يمكن أن نسميه (غريزيا) بالمعنى السيكولوجى الدقيق ، هو عملية الرضاعة فى سنوات الطفولة الأولى .

ولست أعلم كيف كانت الحال بالنسبة للبدائيين الذين كانوا يعيشون على الفطرة ، غير أنه من واجب أهل الحضر والمدنية أن يتعلموا أداء العمل الجنسى . ولعله من غير المألوف للأطباء الذين قدر لهم أن يستقبلوا فى عياداتهم أزواجا وزوجات مضى على زواجهم بضع سنوات وقد جاءوا يستشيرونهم فى انجاب الأطفال .. أن يتضح — من الفحص والأمثلة —

أن هؤلاء الأزواج والزوجات لم يهتدوا إلى كيفية ممارسة عملية الجماع الجنسى على الوجه الأكمل . ومن هذا يتضح أن ممارسة الاتصال الجنسى أمر ليس غريزيا بطبيعته — بالمعنى الدقيق — على الرغم من وجود ميل طبيعى نحو المجامعة ، ونشوء رغبة ليس من السهل إشباعها بدون ممارسة هذا العمل الجنسى. ذلك لأن عدم الإشباع الجنسى قد يؤدى تدريجيا — وربما بالمصادفة — إلى إحداث نشاط متكرر ينجم عنه إشباع وارتواء دون أن يكون هو العمل الغريزى الذى يدفع إلى ممارسة هذا النشاط وتعلم كيفية أدائه .

ونظراً لأن كافة المجتمعات المتمدينة الحديثة تقوم على أساس النظام العائلى الذى يسود فيه الأب ، ونظراً لأن فكرة — أو نظرية — الشرف والعفة والوفاء بالنسبة للأنثى ، إنما وجدت لتجعل قيام الأسرة ممكناً ، فقد لزم أن نبحث عن الدوافع الطبيعية التى أنشأت الشعور بالأبوة .

وقد لا يكون من العسير أن نفهم شعور الأم نحو طفلها ، مادامت هنالك رابطة جسدية طبيعية بينهما ، تستمر — على أية حال — حتى وقت الفطام . أما العلاقة بين الأب والطفل ، فهى علاقة غير مباشرة ، يقيدها مدى الاعتقاد فى شرف الزوجة وطهرها ووفائها . فهذه العلاقة تتسم بالتالى بدرجة معينة من الذكاء ، حتى إنها تعتبر غريزية بحتة ، أو على الأقل يفترض أنها كذلك ، إذا ما افترضنا أن الشعور بالأبوة يجب أن يوجه بالضرورة إلى أطفال الرجل ذاته . على أن هذا ليس هو الحادث فى جميع الأحوال . فسكان جزر (الميلانيز) بجنوب استراليا ، لا يحفلون بتعيين آباء

لأطفال ، وإن كان الأزواج منهم يشغفون بأطفال زوجاتهم .

والواقع أن هناك سببين بارزين يدفعان الرجل إلى الاهتمام بطفل ما .. أحدهما هو اعتقاده بأن هذا الطفل ابنه ، والآخر هو اكتفاؤه بأن يكون الطفل ابن زوجته . وتشيع الحالة الثانية فى المجتمعات التى لايكون فيها دور الأب فى انجاب النسل معروفا . فلقد كان أهل جزر (التروبرياند) - مثلا - لايعرفون لهم آباء معينين. بل كان الرجل يبتهج، إذا ماعاد من رحلة طويلة - يكون قد غاب فيها عاما أو أكثر - فيجد أن زوجته قد أنجبت طفلا حديث الولادة . وهو فى ذلك لايداخله الشك إطلاقا فى وفاء زوجته أو عفتها . إذ كان الشائع بينهم أن الأرواح هى التى تنفث الأطفال فى أحشاء أمهاتهم، وكانت الحيـــاة المطلقة التحرر التى كان يمارسها الشاب والفتاة - فى تلك الجزر - تعرض الفتاة لأن تبدو عليها علامات الحمل ، فى بعض الأحوال ، فلم يكن هذا يعرضها لمسئولية ما ، وفقاً للفلسفة المحلية للقوم . على أن الفتاة ذاتها ، كانت لاتلبث أن تمل تغيير الشبان الذين يعاشرونها ، فتتزوج ، وتذهب لتعيش فى قرية زوجها ، على الرغم من أنها تظل تعتبر أطفالها منتمين إلى قريتها الأصلية ، ولاتكون لزوجها صلة قربى بالأطفال . ومن ثم فان السلالة تنسب إلى الزوجة فقط . وتنتقل السلطة التى يمارسها الآباء على أطفالهم - فى كل مكان فى العالم - إلى شقيق الزوجة ، أى خال الأطفال !

وهنا نلاحظ تعقيداً غريبا ، ذلك أن الأخ يفرق بينه وبين أخته

ويعتبران من المحارم ، حتى إنهما عندما يكبران لا يتحدثان فى أى موضوع يتصل — ولو من بعيد — بالمسائل الجنسية . وبالرغم من أن خال الأطفال يكون ولى أمرهم وصاحب السلطان عليهم ، فإنه قلما يرى واحدا منهم إلا فى حالة بعدهم عن أمهم أو عن دارهم . وقد يكون للأب الحقيقى الحق فى أن يلاعب أولاده ويحنو عليهم ، ولكنه لا يملك الحق فى أن يأمرهم ، لأن خالهم هو صاحب الحق الأوحد ! ومع ذلك ، فقد وجد أن العلاقة بين الأطفال وأبيهم — أو زوج أمهم — فى هذه المجتمعات ، تكون أكثر انسجاما وأشد عاطفية مما هى عليه غالبا بين أهل المدنية . والذى أميل إلى ترجيحه هو أن مكث الرجل مع زوجته أثناء فترة الحمل ثم الولادة ، تجعله يميل بفطرته إلى الاهتمام بالطفل منذ ولادته . . وهذا هو الأساس فى عاطفة الأبوة ، وفى ذلك يقول مالينوفسكى : تظهر الأبوة الإنسانية فى مبدأ الأمر كما لو كان ينقصها الاساس البيولوجى الذى تقوم عليه ، غير أنها تبدو كما لو كانت كامنة إلى أغوار بعيدة الجذور ، وتتمثل فى أنها هبة طبيعية وحاجة عضوية • ويعتقد ، على أية حال ، أنه إذا كان الرجل غائبا عن زوجته أثناء مرحلة الحمل ، فإنه لن يحس بغريزته بأية عاطفة فى بادىء الامر . ولما كان العرف والعقائد السائدة فى القبيلة تدفعه إلى أن يعيش مع الام والطفل ، وأن يتجاوب معهما ، فان العاطفة تنمو لديه تدرجيا عن طريق الالفة والمعاشرة .

والذى أعتقده أن هناك ميلا لدى أى رجل — أو أية امرأة —

للشعور بالمحبة والعطف نحو أى طفل يميل إليه ، وحتى لو فرض أن العرف أو العادة أو المال هو الذى يدفع الشخص إلى العناية بالطفل — فى مبدأ الامر — فان مجرد توافر هذا الاهتمام يزداد بمرور الزمن ، لاسيما إذا كان المولود ابنا لامرأة يهيم بها الرجل عشقا . من هذا يتبين أن هؤلاء البدائيين من سكان الغابات ، لديهم ذكاء فطرى متوقد يساعدهم على إظهار قدر لا بأس به من المودة والعطف على أبناء زوجاتهم . ويعتبر هذا هو الاساس الاكبر للعاطفة التى يمنحها المتمدينون لاطفالهم .

ويصر (مالينوفسكى) على الاعتقاد بأنه لابد وأن تكون البشرية بأسرها قد مرت بهذه المرحلة التى رأيناها تسود سكان جزر (التروبرياند) ، فلم تكن (الابوة) ـ بمعناها المألوف فى المجتمعات المتحضرة ـ معروفة .

●

الفصل الثالث

عندما ينسب الطفل إلى الأب

ما إن يتجلى الدليل المادى على (الأبوة) حتى يدخل عنصر جديد تماما إزاء الشعور بها ، عنصر أدى فى كل مكان تقريبا إلى خلق مجتمعات يكون الأب فيها الدور الرئيسى . فإن الاب لايكاد يتأكد من أن الطفل (من بذرته) — كما يقول الانجيل — حتى يقوى شعوره نحوه بفضل عاملين ، هما : حب القوة ، والرغبة فى قهر الموت ، فإن الإنسان يحيا فى سلالته . إنه لايموت — عندما ينتهى إلى القبر — ولكنه يبعث فى أبنائه !

إن الطموح العائلى — فى مجتمع ينتسب فيه الاطفال إلى أمهاتهم — يكون مقصوراً على النساء ، ولما كانت النساء لايضطلعن بالكفاح فى الحياة فإن الطموح العائلى الذى يوجد لديهن يكون أقل أثرا مما هو عند الرجال ، ومن ثم ، فمن الممكن أن يقال إن اكتشاف الأبوة قد جعل المجتمع الإنسانى أكثر تنافساً وأكثر نشاطاً وأكثر حيوية وتدفقا ، عما كان عليه الحال فى المرحلة التى سادت فيها المرأة وأصبح الأطفال ينسبون إليها .

وإذا نحن نحينا هذا الأثر جانباً . فإننا نجد أن عاملا جديداً بالغ الأهمية قد نشأ واحتل مكان الصدارة فى شؤون الأسرة . . وبموجبه يصر الرجال على ضرورة المحافظة على شرف المرأة وطهرها وعفافها .

ولهذا ، فقد أدى اكتشاف الأبوة إلى إخضاع النساء لسلطة الرجال ، على أساس أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لضمان شرفهن وعفتهن وإخلاصهن ووفائهن . . فهو خضوع جسمى أولا ، ثم خضوع عقلى ثانياً . وقد ترتب على فرض السيطرة والسطوة على النساء – فى بعض العهود – أن تلاشت روح الصداقة والعلاقات الودية المشـــوبة بالألفة والمحبة بين الأزواج وزوجاتهم . . إذ كانت علاقات الرجل وزوجته تمثل ديكتاتورية السيد الآمر ، ويقابلها – من ناحية الزوجة – انصياع بمثابة واجب محتوم ، وكان الرجل يؤثر أن يحتفظ لنفســه بأفــكاره الهامة ومثله وأسراره ، نظرا لأن الإفضاء بمثل هذه المعلومات إلى الزوجة قد يؤدى بها فى النهاية إلى خيانته . . فضلا عن أن المجتمعات لم تــكن تعترف للنســاء بأية خبرة أو دراية فى أمور العالم أو دنيا الأعمال . . ومن ثم فإنهن ظللن فى حالة غباء مصطنع ، وبالتالى لم يظفرن بأى نصيب من الأهمية .

والواقع أن الرغبة فى التأكد من شرعية إنجاب الأطفال ، أدت إلى تشويه الحب كعاطفة بين الرجال والنســاء . . ولم يقتصر الأمر على الحب فقط ، بل تعداه إلى كل ما تساهم به المرأة نحو المــدنية ، إذ تعثر نشاطها لنفس السبب .

وقد تغير النظام الاقتصادى فى نفس الوقت الذى تغيرت فيه طريقة استقصاء النسب . ففى نظام الاسرة الامى ـ الذى يرتكز محور القرابة فيه على الأم وحدها ـ كان الرجل يرث عن خاله ، فى حين أنه فى المجتمعات الابوية ـ التى تكون السيادة فيها للأب ـ يرث عن أبيه . والعلاقة بين الاب وابنه فى المجتمع الأبوى أشد وأوثق ارتباطا من أية علاقة أخرى توجد بين الذكور فى مجتمع يعترف للأم بالسيادة ، وذلك كما رأينا نظراً لان الوظائف التى نسندها عادة للأب ، تتوزع فى المجتمع الأمي بين الأب والخال . . فالمحبة والرعاية تكونان من جانب الوالد ، بينما تكون السلطة والسطوة والملكية من حق خال الطفل . ومن الواضح إذن أن العائلة التى يسود فيها الاب تكون أشد ارتباطاً وتماسكا من العائلة التى على هذا الطراز البدائى الفطرى .

ويبدو أن الرجال قد أعربوا عن رغبتهم ، فى ضرورة أن تكون عرائسهم من العذارى ، منذ بداية النظام الابوى فقط . فقد كان للفتيات ـ أيام أن كان النظام الامي سائدا ـ أن يتمتعن بنفس مايتمتع به الشبان من حرية، غيرأن هذا الأمر لم يعد موضع تساهل مذ لاحت الاهمية القصوى لتنبيه النساء إلى أن كل اتصال جنسى خارج إطار الزواج يعتبر زلة أو خطيئة كبرى لاتغتفر .

وقد عمد الآباء ، منذ أن تنبهوا إلى قيمتهم وأهميتهم وخطورة وضعهم إلى استغلال هذه الحقيقة إلى أبعد مدى . فكان للأب سلطان مطلق على

أبنائه ، يمتد فى حالات كثيرة — كما كان الحال فى روما — إلى درجة التحكم فى حياتهم ومماتهم . ولم يكن من الميسور أن يتزوج الفتيان والفتيات — فى كثير من البلدان — بدون موافقة آبائهم . ولم يكن للمرأة فى أية مرحلة من حياتها كيان مستقل ، نظراً لخضوعها لوالدها أولا ، ثم لزوجها فيما بعد . وبالرغم من ذلك . فإننا نجد أن المرأة العجوز كانت — فى الوقت ذاته — تمارس داخل المنزل سلطة تبلغ حد الاستبداد . على كافة زوجات أبنائها اللائى كن يعشن معها تحت سقف واحد ، وكانت الزوجات مضطرات إلى الخضوع لسلطانها خضوعا تاما .

وتدعمت السلطة التى اكتسبها الأب منذ البداية — بفضل الدين — استناداً إلى قوته وسلطانه الأعلى . فكان الأب هو ممثل السلطة الإلهية فى الأسرة والعشيرة . . وباتساع المجتمع قام التنظيم الملكى والأرستقراطى للدولة ونظام الوراثة فى المجتمع ، على أساس السلطة الأبوية . ومن ثم فقد كان الرجال يرغبون فى زيادة عدد أبنائهم — كما يزيد عدد أغنامهم وإبلهم — حتى يوسعوا سلطانهم فى ممارسة المزيد من السلطة على تابعيهم ، ولهذا حضت الأديان الناس — إذ ذاك — على أن يتناسلوا ويتكاثروا ويتضاعفوا . غير أن الظروف الاقتصادية تغيرت بتقدم الحضارة والمدنية ، وأصبحت المعتقدات الدينية — التى كانت فى وقت ما ملتقى اهتمام الناس — مبعث ضيق وإعنات لهم . فما إن حانت السنوات الأخيرة لازدهار الامبراطورية الرومانية ، حتى كان الرصيد المتبقى من السلطة الأبوية آخذا فى الزوال تدريجيا ، بالرغم

من نصائح دعاة الأخلاق التى لم تلق — كالمعتاد — آذانا صاغية . وأصبح الطلاق سهلا وشائعا ، كما أحرزت سيدات الطبقة العليا فى المجتمع مراكز تعادل تقريبا مراكز الرجال .. وأخذت السلطة الأبوية فى الزوال تدريجيا ، ويماثل هذا التطور — فى أوجه كثيرة — مايحدث فى أيامنا . فيما عدا أنه كان مقصوراً على الطبقة العليا .

وبالرغم من أن السلطة الأبوية ما زال معترفا بها ، وعلى الرغم من أن الأسرة ما زالت قائمة كنظام اجتماعى ، فإن المجتمع الحديث لايعلق أهمية كبيرة على السلطة الأبوية . كما اضمحل التضامن العائلى كثيراً عما كان عليه من قبل ، تمشيا مع اختلاف آمال الرجال وأطماعهم اليوم عنها فى أيام أسلافهم فقد أصبحوا يسعون إلى تحقيق المجد والسؤدد لأنفسهم عن طريق مراكزهم ووظائفهم فى الدولة ، أكثر منهم عن طريق امتلاكهم ذرية كبيرة العدد . وهذا التغير يفسر لنا السبب فى اضمحلال الاكتراث بالتقاليد الأخلاقية والمبادىء والمثل العليا .

وهذا يسوقنا إلى الحديث عن أثر الدين فى الآراء والمعتقدات الخاصة بالزواج والأسرة .

●

الفصل الرابع

عبادة الشمس والقمر، والزهد، والخطيئة

كانت أمور الجنس ــ منــذ ذلك الوقت الأول الذى اكتشفت فيه الأبوة ــ موضع اهتمام من الدين. فان الدين يهتم دائمــاً بكل شىء يشوبه الغموض وتبدو قيمته فى حياة الناس.

ولقد احتل العقم ــ سواء كان فى الحاصلات الزراعية، أو الماشية، أوالنساء ــ المــكانة الأولى من اهتمام الرجال فى بداية عهد الرعى و الزراعة. وكما أن الزراعة لم تــكن تثمر دائما، كان الجماع الجنسى لايحتم حدوث الحمل عند المرأة. وقد لجأ الناس للدين، كما استعانوا بالسحر، للتأكد من تحقيق النتيجة المطلوبة. فقد كان من المعتقد ــ طبقاً للمعتقدات البدائية ــ أن خصوبة الأرض يمكن تنميتها تبعاً لزيادة الخصوبة البشرية ــ التى كانت مرغوبة ــ فى كثير من المجتمعات البدائية، بالالتجاء إلى مختلف الطقوس الدينية و السحرية.

وفى أجزاء كثيرة من العالم، ساد الاعتقاد بأن القمر ــ باعتباره مذكراً

هو الأب الحقيقى لجميع الأطفال . وقد كانت قبائل الماورى - فى استراليا - تعتقد أن القمر هو الزوج الدائم أو الزوج الحقيقى لجميع النساء ! .

وهذا الرأى مرتبط بالطبع بعبادة القمر . وكان هناك صراع عجيب - لا يتصل مباشرة بموضوعنا الحالى - بين كهنة الشمس وكهنة القمر . وقد أدى هذا الصراع مرة - فى مصر القديمة - إلى نشوب حرب أهلية . على أن النتيجة النهائية - فى كل مكان - تمثلت فى انتصار عبدة الشمس . وكان هذا راجعا ، أينما حدث ، إلى حقيقة هامة واضحة ، هى أن للشمس تأثيراً على الحاصلات الزراعية أكثر مما للقمر . . وكيفما كان الأمر ، فقد استمرت عبادة الشمس والقمر إلى القرون الوسطى ، عندما استطاعت البروتستانتية فى النهاية أن تقتلعها من جذورها ، وتقضى على كل آثارها .

* * *

ولقد كان البغاء المقدس نظاما آخر واسع الانتشار فى العصور القديمة . ففى بعض البلاد ، كانت النساء المحترمات يذهبن إلى المعبد ، ويمارسن المجامعة الجنسية مع راهب المعبد ، أو مع أى شخص غريب يتصادف مروره بالمعبد فى ذلك الوقت . وفى بعض الحالات الأخرى ، كانت الراهبات يعتبرن أنفسهن بغايا مقدسات ، ومن المحتمل أن تكون مثل تلك الطقوس والتقاليد قد نشأت نتيجة لمحاولة ضمان إخصاب النساء عن طريق التقرب للآلهة .

ويقابل هذا مذهب آخر ، قدر له أن ينتصر على المذهب السابق عند

ظهور البوذية ، ثم المسيحية . ذلك هو اعتبار العلاقات الجنسية إثما . . وامتداد هذا الاعتبار – إلى حد ما ، وبطريقة أو بأخرى – إلى الزواج ذاته . وقد وجد مثل هذا الاعتبار فى بلاد كانت بعيدة جدا عن التأثر بالمسيحية والبوذية فكان بعض الذكور والأناث ينذرون أنفسهم للرهبنة والعزوبة.

ولقد ظهرت لدى اليونان والرومان مذاهب فلسفية تدعو إلى الزهد وانكار الذات ، وتغلو فى ذلك إلى درجة اعتبار كل جماع جنسى – مهما تكن شرعيته – دنساً وإثماً .

ويتضح من ذلك ، أن الرجال يدفعون فى بعض الظروف إلى الخوف الشديد . الذى يصل إلى مرحلة الهلع من الأمور الجنسية . وهذه الروح عندما تنشأ تعتبر دافعاً طبيعياً ، مثلها مثل الاندفاع الشديد . نحو المسائل الجنسية . ومن الحكمة أن نحيط بهذه النواحى علماً ، وأن نفهمها من الناحية السيكولوجية ، إذا ما كان لنا أن نبدى رأينا عن أكثر نظم العلاقات الجنسية إشباعا للطبيعة البشرية .

ومن العبث أن ننظر إلى المعتقدات على اعتبار أنها مصدر لهذا الاتجاه . وأعتقد أن السببين الأساسيين لنشوء مثل هذه الحالة النفسية هما : الغيرة ، والتعب أو الإرهاق الجنسى . فعندما تثور الغيرة – ولو بقدر ضئيل – يبدو العمل الجنسى شيئاً تشمئز منه النفس . كما يعتبر الاشتهاء الذى يؤدى إليه عملا مزريا . فالرجل الذى تسيطر عليه الغرائز ، يجب دائما أن يستأثر وحده بعشيقاته . . وأى حب يظهرنه لغيره من الرجال يثير فيه مشاعر يمكن أن

تتطور إلى مرحلة الاتهام الأخلاقى وخاصة إذا كانت المرأة فى هذه الحالة هى زوجته .

والمرء يجد فى قصص شكسبير - مثلا - أن أبطال قصصه لايحبون أن تكون زوجاتهم عاطفيات ، وأن المرأة المثالية هى التى تقبل زوجها وترتمى فى أحضانه شعوراً منها بالواجب ، ولا تفكر فى أن تتخذ عشيقاً ، إذ أن الجنس فى ذاته شىء غير مقبول بالنسبة إليها ، وإنما هى تحتمله فقط لأن القانون الأخلاقى يوجب ذلك . والزوج إذا اكتشف أن زوجته تخونه ، امتلأت نفسه احتقاراً لها ولعشيقها واشمئزازاً منهما ، وهو مسوق فى ذلك بدافع من أن السلوك الجنسى عمل حيوانى ، ويتبلور هذا الشعور - بوجه خاص - عندما يصبح الزوج غير قادر على الوفاء بواجبه الجنسى نحو زوجته نظراً لتعبه ، أو نتيجة لتقدمه فى السن .

والإجهاد الجنسى ظاهرة جلبتها الحضارة والمدنية ، فليس له وجود بين الحيوانات ، كما أنه نادر الوجود بين غير المتمدينين . ولا يترقب حدوثه - عندما يسود نظام الاقتصار على زوجة واحدة - إلا بنسبة ضئيلة .. وكذلك عندما يكون للمرأة الحق فى رفض الجماع ، إذا لم تكن راغبة فيه . لأن غياب هذا الحق ، يحمل معظم الرجال على الإفراط المجهد .. وهنا نستطيع أن نلمس أثر العامل الاقتصادى . فحيثما تعتمد الزوجة فى معيشتها على زوجها ، نجد أنها تستوى مع المومس فى إبداء مفاتنها الجنسية ، فهى لاتستسلم للزوج بوحى من غريزتها . وقد أدى هذا إلى اضمحلال عنصر الغزل والمداعبة فى النشاط الجنسى.

وهو عنصر يعتبر بمثابة صمام أمن أبدعته الطبيعة ضد التعب والإجهاد الجنسى . وهكذا ، فإن الرجال الذين لا يتمسكون بالمبادىء الأخلاقية القوية معرضون لأن يستسلموا للمغالاة . وهذا يؤدى فى النهاية إلى شعور بالتعب والضجر والتقزز .. وهذا يؤدى بدوره إلى الإيمان بمبادىء الزهد وانكار الذات !

وحيثما تجتمع الغيرة و الإجهاد والملل الجنسى - كما هو الحال غالباً - يصبح النفور الجنسى هو الصفة الغالبة . وأعتقد أن هذا هو السبب الرئيسى الذى من أجله أصبحت الرهبانية والعزوف عن الدنيا والتجرد وإنكار الذات عرضة لأن تنمو وتتغلغل فى المجتمعات الاباحية التى لا تتقيد بقانون أو أخلاق .

وللعزوبة - كظاهرة تاريخية - مصادر أخرى . ذلك أن الرهبان والراهبات الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الدين ، ينظر إليهم على اعتبار أنهم قد تزوجوا هذه المبادىء الإلهية . فيحرم عليهم ممارسة أى اتصال جنسى مع كائنات مصيرها إلى الموت والفناء . وهم يعتبرون أنفسهم شيئاً مقدساً ، وهكذا يوجد ارتباط بين القداسة والعزوبة .

ويغلب على ظنى أن هناك أسباباً أكثر غموضاً مما تعرضنا لشرحه ، أدت إلى هذه الرهبنة والتجرد المتزايد الذى انتشر فى هذه السنين الأخيرة فى العالم القديم . هناك فترات تبدو فيها الحياة بهيجة ، والرجال يفيضون بالقوة والفتوة . ويبدو فيها أن مباهج هذا العالم كافية لمنح الاشباع والارتواء التام .. وهناك أوقات أخرى يبدو فيها التعب والملل على الرجال ، فلا يقنعون

بمباهج هذا العالم ، ويتطلعون إلى تسرية روحية أو حياة مستقبلة تملأ الفراغ الطبيعي الناشيء عن التكرار الرتيب المألوف .

ومن المحتمل أن الأسباب التي اعتقدنا في وجودها ، وأسبابا أخرى مختلفة ، أدت إلى الشعور العام بالضجر والملل في السنين الأخيرة من العصر القديم ، ومن هذا الملل ، كانت الرهبنة أو التجرد واحداً من أشكالها .

●

الفصل الخامس

الحب الشاعرى

بانتصار المسيحية والبربرية ، هوت العلاقات بين الرجل والمرأة إلى حضيض من الحيوانية لم يكن معروفا لعدة قرون خلت فى العالم القديم . حقاً لقد كان العالم القديم يعج بالرذيلة ، غير أنه لم يكن متسما بطابع الوحشية والعنف . فقد تضافر الدين والبربرية — فى العصور المظلمة — على أن يحطا من الجانب الجنسى للحياة . فلم يعد للزوجة أية حقوق فى نطاق الزواج . أما خارج إطار الزواج . . فقد انغمس الجميع فى حمأة الرذيلة ، لدرجة أصبح معها من المستحيل كبح جماح الحيوانية والضراوة الوحشية .

وانتشرت الإباحية — فى العصور الوسطى — إلى درجة اشمأزت لها النفوس وجزعت الأفئدة . فكان القساوسة والرهبان يعيشون فى تبذل واستهتار ، وتفشت بين رؤساء الأديرة وكبار رجال الكنيسة معاشرة الذكور .

ومع أن نظام العزوبة فرض على رجال الأكليروس فى أواخر القرن الثالث عشر إلا أنهم استمروا فى الاحتفاظ بعلاقات غير شرعية .. وتركوا

للشعراء مهمة السمو بالعلاقات بين الرجل والمرأة ، فراح هؤلاء الشعراء يتغنون بالشهامة ، والعفة ، والحب العذرى ، حتى لقد أصبح ينسب إليهم ، ويسمى « الحب الشاعرى » !

والحب الرومانتيكى أو الشاعرى ، يقوم فى جوهره على أن المحبوب – وهو المرأة غالباً – صعب المنال عزيز الجانب . فالأمر يتطلب إذن السعى والتحايل إلى اجتذاب عطف المحبوبة عن طريق الشعر والأغانى والتحلى بالأسلحة وحملها واستعراضها أمامها .

والواقع أن الإيمان بارتفاع قيمة المرأة يعتبر – فى أصله – نتيجة نفسية تترتب على صعوبة الحصول عليها ، ومن المسلم به – كما أعتقد – أنه عندما تنعدم صعوبة استحواذ الرجل على المرأة ، فإن شعوره نحوها لا يتخذ صورة الحب الرومانتيكى أو الشاعرى .

ويبدو من الحالة التى تراءى إلينا أنباؤها من العصور الوسطى ، أن الحب الشاعرى لم تقصد به النساء عامة ، وإنما كان هدفه السيدات اللاتى كن يتمتعن بأكبر قسط من التوقير والاحترام ، واللاتى كان يفصلهن عن أحبائهن موانع وسدود من الأخلاق والتقاليد لا سبيل إلى تخطيها أو تجاوزها . وقد بذلت الكنيسة جهودها لكى توحى إلى الرجال بأن المسائل الجنسية أمور غير طاهرة ، فأصبح من الواجب أن يكون الحب أفلاطونياً ، إذا أريد له شىء من الجمال .

ومن الصعب جداً على أبناء العصر الحديث أن يتصوروا سيكولوجية المحبين الشعراء فى العصور الوسطى . فحب «دانتى» «لبياتريس» ، لا يقتصر فى رأيي على التقاليد الأخلاقيـة ، بل هو انفعال أكثر عاطفيـة من أى نوع يعرفه المحدثون . إن ذوى النفوس النبيـلة فى القرون الوسـطى سئموا هذه الحياة الأرضية ، وكرهوا الجسـد ومباذله ، نتيجة للانحلال والخطيئـة ، فأصبحت اللذة الكاملة والسـعادة الدائمة لديهم تتمثل فى التأمل العميق ، والاستغراق البهيج الجميل فى شىء يبدو لهم متحرراً من ربقة الجنس . ومن ثم رأينا حب «دانتى» لبياتريس يتخذ صوراً وأشكالا شاعرية خيالية ، ويمتلىء بالكثير من الرمزيات وكان لكل هذا أثر رائع بالنسبة للأدب .

وفى فرنسـا ، اتجه التطور اتجاهـا مغايرا بعض الشىء لاتجاهـه فى إيطاليا ، فكانت الأفكار الارستقراطيـة الفرنسية حول الحب منعمـة بروح الفروسية والشهامة ، مع عدم الإصرار على ترك الحب بلا ارتواء . كان هذا فى الواقع رد فعل يتنافى مع تعاليم الكنيسة . ولقد تحول الحب فى عصر النهضة ـ نتيجة للتحول المفاجىء نحو النزعة الإلحادية ـ فلم يعد أفلاطونياً ، رغم أنه ظل شاعرياً . . فكان طابع الحب الشاعرى فى ذلك العصر هو المرح مع الطهر .

وقد نشأت فى الأزمنة الحديثـة أى منذ عهد الثورة الفرنسية تقريبـاً فكرة مؤداها أن الزواج يجب أن يكون نتيجة للحب الشاعرى . فامتلأت

المسرحيات والقصص التى ألفت منذ مئات السنين بتصوير الصراع بين الجيل الجديد الذى يريد أن يرسى قواعد جديدة للزواج ، والجيل القديم الذى يريد أن يفرض على الشباب زواجاً تقليدياً يقوم على اختيار الوالدين للعروس .

ولسنا ندرى ما إذا كان الأثر الذى أحدثته هذه المؤلفات طيباً أم لا ، إن الأمر لما يحتمل الشك . ومن المستحسن هنا أن نذكر كلمة عن نظرية مسز « ملابروبس » ، الذى يقول إن كلا من الحب والكراهية يبلى فى الزواج ، ولهذا فمن الأفضل أن تبدأ الرابطة بين الرجل والمرأة بشىء من النفور الجنسى ويبدو أن هذا صحيح عندما يقدم الاثنان على الزواج بدون خبرة جنسية سابقة ، وإنما تحت تأثير الحب الرومانتيكى أو الشاعرى فيتصور كل منهما أن الآخر يمتلك صفات خالدة ، ويعتقد أن الزواج سيكون حلماً جميلا طويلا من السعادة القصوى واللذة الدائمة . تلك هى على الأخص حال المرأة إذا نشأت على الجهل والأمية الجنسية والعذرية والطهر والصفاء . . أنها تكون بالتالى غير قادرة على أن تميز بين الجوع الجنسى وبين الصداقة والمودة الخالصة .

والواقع أن الزواج شىء أكثر جدية من مجرد المتعة التى يشعر بها شخصان عندما يكون كل منهما فى صحبة الآخر ، إذ أنه نظام ينشأ عنه أطفال ، فهو يكون جزءاً دقيقاً من كيان المجتمع ، وله أهمية تمتد إلى أبعد من مجرد العواطف الشخصية لكل من الزوج والزوجة . وقد يكون من

الخير . بل أعتقد أنه خير ، أن يكون الحب الشاعرى هو الباعث على الزواج ، ولكن يجب أن يكون مفهوما أن ذلك النوع من الحب الذى يتسبب فى جعل الزواج سعيداً وأن يؤدى الغرض الاجتماعى منه . . هذا الحب ليس شاعرياً رومانتيكياً ، وإنما هو شىء أكثر ارتباطاً وعاطفية وواقعية .

●

الفصل السادس

تحرير المرأة

يرجع التحول فى النظرة الأخلاقية إلى المسائل الجنسية — فى الوقت الحاضر — فى أصله ، إلى سببين : الأول ، هو اختراع موانع الحمل . . والثانى ، هو تحرير المرأة .

ويعتبر تحرير المرأة جزءاً من الحركة الديمقراطية : بدأ بالثورة الفرنسية. فقد نشأ عن الأفكار التى سببت الثورة الفرنسية — وتسببت عنها — أن أصرت النساء على المساواة بالرجال ، وازداد تشبثهن بهذا الحق فى عناد وإصرار ونجاح .

وكانت الحركة النسائية فى أوائل عهدها وقفاً على الطبقتين العليا والمتوسطة، فلم تكن لها تبعاً لذلك قوة سياسية كبيرة. على أن أنصار الحركة النسائية من الطبقة الوسطى ، أصابوا فى انجلترا — فى سنة ١٨٨٢ — نجاحاً واحداً كبيراً ، هو اقرار « قانون الملكية الخاصة المرأة المتزوجة » . فقد كان كل ماتملكه الزوجة — حتى صدور هذا القانون — خاضعاً

لإشراف الزوج ، على الرغم من أنه لم يكن يملك أن يستثمر أموالها فى مشروع ما . ويعتبر التاريخ الحديث لحركة المرأة ، من الناحية السياسية ، قريبا جداً إلى الأذهان ومعروفا بحيث لا يحتاج إلى تكرار سرده . ومما يستحق الملاحظة ، على أية حال ، هو أن السرعة التى نالت بها المرأة حقوقها فى معظم البلاد المتمدينة ، سرعة لا نظير لها فى الماضى .

وفى اعتقادى أن هذا يرجع إلى عاملين : فهو يرجع - من ناحية ، إلى التأثير المباشر للنظرية الديمقراطية ، التى جعلت من المستحيل إيجاد أى تعليل منطقى لحرمان النساء من حقوقهن . . كما يرجع ، من ناحية أخرى ، إلى استخدام عدد متزايد من النساء فى الأعمال ، وكسبهن عيشهن خارج نطاق المنزل ، فأصبحن بذلك لا يعولن فى توفير مطالبهن اليومية على ما يجود به آباؤهن أو أزواجهن . وكان من الطبيعى أن تبلغ هذه الحال ذروتها خلال الحرب العالمية الأولى ، عندما عهد بجزء كبير جداً من الأعمال التى كان يقوم بها الرجال إلى النساء . . وكان من جراء الدور الذى قمن به فى تلك الحرب ، أن ظفرن بحق الانتخاب فى بعض دول كانجلترا .

ولم تقم حقوق المرأة بطبيعتها على أى اعتقاد فى أن النساء يفضلن الرجال من الناحية الأخلاقية ، أو من أية ناحية أخرى ، وإنما قامت فقط على أساس حقوقهن كبشر ، على أن مسألة تحرير أو عتق النساء من الناحية السياسية ، لا تتصل بطريقة مباشرة بالموضوع الذى نحن بصدده ، فى حين أن تحررهن الاجتماعى هو الذى يهمنا فيما يتعلق بالزواج والأخلاق .

فمنذ فجر التاريخ حتى وقتنا هذا ، كان من الممكن ضمان الفضيلة لدى النساء والتأكد من عدم الاعتداء على عفافهن ، وذلك بعزلهن . فلم تبذل أية محاولة لإعطائهن أية رقابة داخلية على أنفسهن ، وإنما بذلت جهود شتى لتفادى فرص اقترافهن الإثم أو وقوعهن فى براثن الخطيئة . ولكن هذه الطريقة ذاتها لم تتبع لدى الغرب تماما . بل كانت نساء العائلات الكريمة يتعلمن ويتثقفن . . وكانت ثقافتهن تتجه منذ سنواتهن المبكرة إلى الايحاء الذى يجعل فكرة الجماع الجنسى فى غير ظلال الزوجية تسبب لهن خوفا ورعباً شديدين . وبارتقاء طرق التعليم ، زالت الحواجز الخارجية رويدا ، اقتناعا بأن فى الموانع والنوازع الداخلية الكفاية . وساد الاعتقاد - مثلا - بأنه لم يعد هناك مايبرر عدم السماح للعذارى بالخروج إلا فى صحبة سيدة متقدمة فى السن ، أو فى صحبة سيدة متزوجة ، ما دامت الفتاة ذات منبت طيب ونشأة فاضلة ، تصونها من الاستسلام لغزل الشبان ، مهما تكن ظروف الإغراء وسبل الغواية .

وكان الشائع لدى أرباب الخدور من النساء ، الفضليات - عندما كنت صغيرا - أن المجامعة الجنسية ليست مصدر متعة للأغلبية العظمى من النساء ، وأنها إنما تطاق أثناء الزواج لمجرد الشعور بأنها واجب . ونظرا لتمسكهن بهذا الرأى ، فإنهن لم يكن على استعداد للمخاطرة وإتاحة قدر من الحرية لبناتهن يفوق ما كن يرين أنه ملائم . وكان من جراء ذلك ، أن نساء العصر الفيكتورى عشن فى سجن عقلى ، ولا تزال كثيرات من النساء يعانين هذه

الحالة فى الوقت الحاضر . وقد أدى انهيار هذا الـكبت ، وانطلاق المرأة من إسار هذه القيود ، إلى ظهور الرغبات الغريزية ، بين شباب عصرنا الحاضر ، فى صورة إرادية واعية .. هذه الرغبات العارمة التى كانت ترزح تحت جبال من التحفظ الشديد . وقد كان لهذا تأثير كبير على أخلاقيات الجنس فى جميع البلاد المتمدينة ، ولدى كافة الطبقات .

ولم تـكن المطالبة بمساواة المرأة بالرجال مقصورة – منذ البداية – على الشئون السياسية ، وإنما تجاوزتها إلى طلب المساواة فى الشئون الجنسية . وكان الاتجاه فى بدايته ، هو أن تفرض على الرجال نفس القيود الأخلاقية التى كانت تتحملها النساء من قبل . ولـكن كثيرات من الشابات اتجهن ، منذ سنة ١٩١٤ ، اتجاها آخر ، دون اكتراث للمبادىء والنظريات . ولقد كان الانفعال الوجدانى الناشىء عن الحرب ، هو الباعث ، بلا ريب ، على هذا الاتجاه قبل ذلك الوقت بكثير ، فـكان الدافع على التمسك بعفاف المرأة فى الماضى الخوف من عقاب الآخرة ، الخوف من الحمل . وهما وازعان انهار أولهما بتداعى المبادىء الأخلاقية والدينية ، وانهار الثانى نتيجة لاختراع موانع الحمل . وقد ساعدت الصدمات الناجمة عن الحرب على سقوط هذه القيود والحواجز ، فلم تعد نساء العصر الحديث شديدات الرغبة فى استنكار « رذائل » الرجال ، كما كن منذ ثلاثين عاماً ، وإنما أصبحن يطالبن بما هو مباح للرجال . . على أن هذه الحركة بأسرها لا تزال فى المرحلة الأولى . ويبدو من المستحيل أن نتكهن بما قد تتمخض عنه .

ولنتوقف هنا لحظة، ولنتأمل الدوافع المنطقية التى تقوم عليها مطالبة النساء المساواة بالرجال ، فلقد كان للرجال ـ منذ قديم الأزل ـ أن يستمتعوا بما شاؤا من علاقات غير شرعية فى دنيا الجنس . . وحتى بعد الزواج ، لم تكن الخيانة الزوجية تعتبر عملا خطيرا ، إذا لم تصل إلى الأسماع . . وقد ساعد وجود البغاء على هذا الوضع .

وقد يكون من الصعب على المفكر المعاصر أن يدافع عن هذا النظام . وقد تقترح فئة قليلة من المفكرين ، أن يباح للنساء مايباح للرجال ، وذلك عن طريق إيجاد طبقة من الرجال يحترفون البغاء بالنساء ، إرضاء للنساء اللاتى يرغبن ـ كأزواجهن ـ فى الظهور بمظهر الورع والتقى ويلبسن مسوح الطهر والفضيلة ، بدون أن يكون لكل هذه الصفات أدنى نصيب من الصحة . وإذا كان الرجال يعجزون عن التحكم فى شهواتهم وعواطفهم ، فان النساء أكثر عجزا منهم ، أو هن مثلهن استنادا إلى المساواة .

ويعتبر هذا الموقف بالنسبة لعالم الأخلاق موقفاً مؤسفاً غاية الأسف .. إذ أن الوضع الظاهرى يوحى بأنه مادام كثير من الرجال يجدون الزواج المبكر أمرا مستحيلا لأسباب اقتصادية كما أن هذه حال كثيرات من النساء فى نفس الوقت ، فإن المساومة بين الرجال والنساء تتطلب التسامح فى المستوى التقليدى للفضيلة لدى المرأة . وإذا كان للرجال حق ممارسة الاتصال الجنسى قبل الزواج ، فيجب أن يسمح للنساء بذلك أيضاً . . ومعنى هذا

التغاضى عن الطهر والعفاف بالنسبة للعذارى ، وعن الإخلاص والوفاء بالنسبة للمتزوجات ! .

وإذا صح هذا ، فقد لزم إيجاد وسائل جديدة لحماية الأسرة ، أو التسليم بانهيار الكيان العائلى !

ولقد يقترح أحدهم أنه يلزم أن يكون إنجاب الأطفال فى نطاق الزواج فقط ، وأن تكون كافة العلاقات الجنسية التى تحدث خارج الزواج عقيمة غير مثمرة ، وذلك باستخدام موانع الحمل . وعيب هذه الفكرة ، أنها تجعلنا نضع الثقة كلها فى موانع الحمل ، ويجعل إخلاص الزوجة أمراً نسبياً .

والظاهرة الثانية المتمشية مع هذا الاتجاه فى الميدان الخلقى ، هى تفكك رابطة الأبوة كنظام اجتماعى هام ، وحلول الدولة محل الأب فى القيام بواجباته.

ونرى لزاما علينا من ناحية أخرى أن نعيد النظر فى المبادىء الأخلاقية القديمة . فهناك اتجاه لايزال ينفذ فعلا ، فى المدارس التى تخضع لاشراف الكنائس ، فى بلاد كانجلترا ، ويهدف إلى أن يسير تعليم البنات فى اتجاه خاص ليصرن جاهلات سطحيات غبيات فيما يتعلق بالأمور الجنسية . . والشىء الثانى الذى يتجه الرأى إلى عمله هو فرض رقابة صارمة جدا على كافة الكتب التى تعالج مشاكل الجنس . وهذا الشرط فى طريقه إلى التنفيذ فى انجلترا وأمريكا .

ولكن هذين الاتجاهين غير كافيين . . والشىء الوحيد الذى يكفى فعلا ، هو أن نبعد عن الفتيات كل فرصة للانفراد بالرجال ، فيجب أن تمنع

الفتيات من كسب عيشهن بالعمل خارج حدود المنزل . ويجب ألا يسمح لهن بالخروج إلا فى صحبة أمهاتهن أو عماتهن . كما أن ذهابهن إلى الحفلات الراقصة بدون اصطحاب أحد من أقاربهن لضمان الرقابة يعتبر عملا .. يدعو للأسف ، ويجب أن يوقف فورا . وإلا أجزنا كذلك تعرض كافة السيدات غير المتزوجات لاختبار طبي دقيق بواسطة الأطباء الشرعيين مرة كل شهر .. وترسل كل من يثبت أنها « ليست عذراء » إلى مستشفى خاص ! .

ولو استمر العمل بهذه القيود لمدة مائة عام مثلا — أو يزيد — فقد يؤدى إلى حدوث شىء لوقف التيار المتزايد للاستهتار والضرب بالنظم الأخلاقية عرض الحائط .

ومهما تكن طبيعة المنهج الذى نسير عليه ، فهناك ولاريب صعوبات وعراقيل . وإذا سمحنا للنظم الأخلاقية الحديثة أن تأخذ مجراها ، فمن المحتمل أن تصل بنا إلى نتائج أبعد مما حدث فعلا ، وأن تؤدى إلى إيجاد متاعب وصعوبات شاقة لم تكن فى الحسبان .. ومن ناحية أخرى ، نخشى فرض قيود جديدة إذ نجد أن الطبيعة البشرية ، فى هذا العصر الحديث — وقد اشتد الضغط عليها وكثرت القيود التى تكبلها — تنطلق فى ثورة عارمة ، وتتمرد على هذه القيود . وهذه نتيجة حتمية ، منطقية .

* * *

ولهذا فإننا نحتاج إلى مثل أخلاقية جديدة وأصيلة . وأعنى بذلك أن

الحقوق والواجبات يجب أن يظل معترفا بها ، على الرغم من كونها قد تختلف عن الحقوق والالتزامات التى كانت فى الماضى . وما دام رجال الأخلاق والمثل يكتفون بالخطب والمواعظ التى تحث على العودة إلى نظام ميت لا وجود له ، فلن يسعهم عمل أى شىء لإضفاء الصبغة الأخلاقية على الحرية الجديدة ، أو لإظهار الواجبات الجديدة التى تتطلبها . ولست أعتقد أن النظام الجديد سيؤدى إلى التسليم بالاندفاع على طول الخط ، غير أنى أعتقد أن فرص كبح جماح التهور والاندفاع ستكون مختلفة عما كان عليه الحال فى الماضى . . والواقع أن المشكلة برمتها ، مشكلة المثل الأخلاقية ومدى تأثيرها فى الجنس ، تحتاج إلى التفكير فيها من جديد . وقد خصصت الصفحات التالية كمساهمة ، ولو متواضعة ، فى هذا السبيل .

●

الفصل السابع

الثقافة الجنسية

عندما نحاول ارساء قواعد أخلاقية جديدة تتصل بالجنس ، فلن يكون السؤال الأول الذى يتبادر إلى أذهاننا هو : « كيف يمكن تنظيم العلاقات الجنسية ؟ » ، وإنما يكون : « هل من المصلحة أن يظل الرجال والنساء والأطفال على جهل مصطنع بالحقائق المرتبطة بالجنس ؟ »

ذلك لأن الجهل بمثل هذه الأمور ضار بالإنسان ويلحق به أبلغ وأفدح الأضرار . وليس فى وسع أى نظام أن يقوم على الجهل بأموره . . ورغبة فى إتاحة المعارف الجنسية والمبادىء الأخلاقية للجميع ، ينبغى أن يعهد بنشرها إلى أشخاص مثقفين ثقافة عالية .

وهذا جزء من مذهب أكثر اتساعا ، ولاسبيل إلى الجدال فيه ، بالرغم من أن الحكومات والسلطات لم تكترث له . ويقتضى هذا المذهب لايمكن الارتقاء بمبادىء السلوك القويم، مع وجود الأمية الجنسية اللهم إلا فى حالات نادرة . . كما أنه لايمكن الرجوع بها القهقرى مع قيام المعرفة والثقافة . فمن

الصحيح طبعاً أنه إذا كان (ا) يريد أن يتصرف (ب) بطريقة معينة — تكون فى صالح (ا) وليست فى صالح (ب) — فقد يجوز (ا) أن يجعل (ب) على جهل بالحقائق التى قد تعرض له ، حتى لايعلم أين مصلحته الحقيقية . وهذا أمر واقع فى مضاربات البورصة ، ولكنه لايمت بصلة إلى المبادىء الأخلاقية العليا . وإنما يتمثل فى جهود أية حكومة فى إخفاء الحقائق . مثال ذلك ، الرغبة التى تشعر بها كل حكومة فى منع نشر أى شىء يتعلق بهزيمتها فى حرب خشية أن يؤدى إلمام الشعب بالأسباب الحقيقية للهزيمة إلى سقوط الحكومة . وهذا أمر قد يحقق مصلحة قومية ، إلا أنه بالطبع لن تكون فيه مصلحة تلك الحكومة .

وعلى الرغم من أن الحقائق الجنسية تنتمى فى الأصل إلى مصدر مختلف ، فان تكتمها والحرص على إخفائها يقومان على باعث مماثل لما تقدم . ولقد كانت النساء هن اللائى يستبقين فى حالة من الأمية الجنسية — فى بادىء الأمر — وكان جهلهن بالحقائق الجنسية مرغوبا فيه كعامل يساعد الذكور على السيطرة عليهن . وقد ارتضين ذلك لاعتقادهن بأن الجهل بمثل هذه الأمور كان ضرورة لازمة للشرف والفضيلة . وقد ترتب على تأثرهن بهذا الاعتقاد ، أن أصبح من المعتقد أنه يجب أن يظل الأطفال والشباب — ذكوراً كانوا أم إناثا — على جهل بالمسائل الجنسية إلى أقصى حد ممكن . وعند هذه المرحلة ، انتقل الباعث من مجرد حب السيطرة ، إلى أنه منع أو تحريم لا سند له من المنطق . بصرف النظر عما إذا كان هذا الجهل مرغوبا

فيه أم لا . وساد الاعتقاد بأنه ما لم يثبت بالدليل أن الجهل من شأنه أن يسبب ضرراً ، فإن مقاومته تكون أمراً منافياً للقانون .

وينص القانون على أنه يجب ألا يتلقى الأطفال والشبان حقائق الجنس . أما مسألة ما إذا كانت هذه الحقائق مفيدة أم ضارة لهم ، فهذا أمر لا علاقة له البتة بالموضوع . وسنسمح لأنفسنا بمناقشة ما إذا كانت هذه العادة التقليدية القديمة ضارة أم نافعة .

* * *

لقد كان المذهب التقليدى يرمي إلى أنه من واجب الآباء والمعلمين بذل أقصى جهد ممكن للاحتفاظ بالأطفال فى حالة جهل مطبق بالأمور الجنسية . فلم يكن الأطفال يشاهدون آباءهم وأمهاتهم ، ولا إخوتهم عرايا . وكانوا يأمرون بألا يلمسوا أبداً أعضاءهم الجنسية أو يتحدثوا عنها ، كما كانوا يزجرون عن الأسئلة والاستفسارات المتعلقة بأمور الجنس ، بنبرات يشيع فيها الاستنكار والجزع . وكان يقال للأطفال — إذا تساءلوا عن مصدر وجودهم — ان الأهل عثروا عليهم بجوار بعض الأشجار .

غير أن الأطفال كانوا لايلبثون أن يدركوا الحقائق — إن عاجلا أو آجلا بطريقة مشوهة إلى حد ما — من الأطفال الآخرين الذين يقرنون شرحهم بالتكتم والسرية ، لأن الأهل يعتبرون هذه الأمور « بذيئة » . ويستنتج الأطفال من هذا ، أن آباءهم وأمهاتهم يسلكون — فيما بينهم —

مسلكا يتسم بالبذاءة والقذارة المنفرة التي يخجلون هم منها ، وإنهم لذلك يبذلون قصارى جهودهم لإخفاء هذه الحقائق عنهم ! ويخرج الأطفال من هذا بأن هؤلاء الذين تطلعوا إليهم ليرشدوهم ويثقفوهم ، إنما يغررون بهم ويضللونهم . وهكذا ، يتحدد موقفهم بالنسبة لآبائهم ، وبالنسبة للزواج ، وبالنسبة للجنس الآخر ، ويتخذون لأنفسهم موقفاً خاصاً ، لا يتسم باحترام الجنس والزواج . وقد أوحت إليهم ثقافتهم وتعليمهم أن الغش والكذب — في نظر الآباء والمعلمين — فضيلة . . وأن العلاقات الجنسية — حتى في ظلال الزواج — أمور مخجلة مستهجنة . . وأنه في سبيل المحافظة على النوع واستمرار النسل ، يطلق الرجال العنان لطبيعتهم الحيوانية ، بينما تضطر النساء إلى أداء واجب لاينجم عنه سوى الألم . وقد أدى كل ذلك إلى اعتبار الزواج غير كاف لإشباع غرائز كل من الرجال والنساء ، وتحول النقص في الارتواء الغريزى إلى قسوة وتزمت تحت ستار الأخلاق .

أما رأى المتطرفين من رجال الأخلاق والمسئولين القانونيين والقضائيين، فمن الممكن أن نصوره على النحو الآتي : « إن الحافز الجنسي قوى جدا ، ويظهر في أشكال متباينة ، وفي مراحل مختلفة ، من النمو والتطور . ففي الطفولة ، يأخذ شكل الرغبة في لمس أجزاء معينة من الجسم والعبث بها . وفي اليفاع يأخذ قالب حب الاستطلاع وحب الأحاديث « البذيئة » . . بينما يبدأ في سن المراهقة في اتخاذ صور وأشكال أكثر نضجاً . ومما لاشك فيه أن الأفكار الجنسية تؤدى إلى إساءة السلوك فيما يتعلق بالجنس ، وكان

الاتجاه العام يذهب إلى أن أفضل طريق يؤدى إلى التمسك بأهداب الفضيلة هو أن نداوم على شغل عقول الصغار وأجسامهم بموضوعات لاتتصل على الاطلاق بالجنس. فيتحتم حينئذ عدم الادلاء إليهم بشيء يتعلق بالجنس مطلقاً، كما يجب منعهم بقدر المستطاع من التحدث عنه فيما بينهم. ويجب أن يدعى الكبار منهم أنه لاتوجد مثل هذه الموضوعات.

بمثل هذه الوسائل، كان من السهل إبقاء الفتاة فى حالة جهل تام وأمية جنسية كاملة .. حتى ليلة زفافها، عندما يبيت من المتوقع أن تصدمها الحقائق بدرجة تحدث فى نفسها نفوراً إزاء الجنس. وهذا هو الاتجاه الذى يعتبره كل رجل متزن من رجال الأخلاق أمرا مرغوباً فيه بالنسبة إلى النساء.

أما بالنسبة للذكور، فإن الأمر يثير صعوبة أكبر. إذ أنه من المتعذر الاحتفاظ بهم فى حالة من الجهل المطبق إلى مابعد الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من العمر، على أكثر تقدير. ومن ثم فقد كان الاتجاه إزاءهم يتمثل فى إخبارهم بأن الاستمناء (أو العادة السرية) تؤدى بطرق مختلفة إلى الجنون، فى حين يؤدى الاتصال الجنسى مع المومسات إلى الأمراض التناسلية. وهذه كذبة بيضاء، لأنها قيلت لصالح الأخلاق. وكان من الواجب أن يقال للصبى إن الخوض فى الموضوعات الجنسية غير مباح على الإطلاق، حتى ولا فى الزواج. ومن شأن هذا أن يزيد احتمال اندفاعه — عندما يتزوج — إلى النفور من أمور الجنس والتقزز منها، وهكذا كان — فى رأيهم — يحفظ نفسه من خطر التردى فى حمأة الزنا، ويؤمن بأن الجنس — خارج

نطاق الزواج — يعتبر إثماً ورذيلة ، فى حين أنه — فى الزواج — ليس بإثم ولا برذيلة ، لأنه ضرورة لحفظ النوع البشرى .. وكأنه عملية جراحية لابد منها . ولا ينبغى — على الأنثى على الأقل — أن تلتمس منها أية لذة .. حتى لقد كان إغراء الزوجات على الاستمتاع بالجماع فى بلد كانجلترا منافياً للقانون .

وعلى هذا الأساس ، وبهذه الفكرة التى أسلفنا توضيحها وأفضنا فى شرحها ينظر القانون، والكنيسة، ورجال التعليم — من الطراز القديم وذوى العقلية البالية — إلى مسائل الجنس . وأود — قبل أن أبين مدى تأثير هذا الاتجاه فى عالم الجنس — أن أقول كلمات قليلة حول نتائجها فى مجالات أخرى . وأولى هذه النتائج وأخطرها — فى نظرى — هو الوقوف فى وجه الفضول العلمى لدى الصغار . فالأطفال الأذكياء يودون معرفة كل شىء فى هذا العالم ، فيوجهون إلينا أسئلة عن القطارات والسيارات والطائرات ، وعن الأسباب التى تؤدى إلى هطول الأمطار وإلى إنجاب الأطفال ، وكل هذه المثيرات سواء بالنسبة إلى الطفل ، وهدفها الأصلى هو الرغبة فى المعرفة .

والطفل لايفهم فى البداية أى أنواع حب الاستطلاع هى التى تعتبر مسموحاً بها ، وأى الأنواع تعتبر محظورة . فإذا ما انتبه إلى أنه من المحظور أن يسأل كيف « يصنع » الأطفال ، فقد يستخلص من هذا أنه من المحظور عليه أيضاً أن يسأل « كيف تصنع الطائرات » ، ويؤدى به هذا — فى النهاية — إلى كبح حب الاستطلاع العلمى ، أى حب المعرفة ، فى نفسه .. إذ يستنتج أنه

الثقافة التي يرغب — من تلقاء نفسه — في الحصول عليها تعتبر من النوع الضار السيء ، بينما الثقافة الوحيدة الفاضلة هي تلك التي لا يتوق الإنسان إلى الحصول عليها ، كجدول الضرب مثلا . هكذا يضيع البحث وراء المعرفة والثقافة سدى ، ويساق الأطفال إلى نوع من الغباء غير الطبيعي على أن هذا الوضع — من ناحية أخرى — لا يقضي على فضول الصغير نحو الجنس .

وهناك ، بالإضافة إلى هذا الضرر العقلي ، ضرر أدبي خطير . ذلك هو أن الخرافات التي تعلل بها المسائل الجنسية للطفل ، لا تلبث — مع نموه وتعلمه — أن تتكشف كأمور غير معقولة ، فيدرك أن والديه قد خدعاه . وأنهما إذ كذبا في موضوع واحد — خليقان بأن يكذبا في موضوع آخر . وبالتالي ، فإن سلطانهما العقلي والأخلاقي يتحطم وينهار . كما يشعر الطفل بأن من حقه هو الآخر ، أن يكذب فيما يتعلق بالأمور الجنسية ، فيمارس بعض العادات الجنسية — كالاستمناء ، إذا ما بلغ — خفية . فضلا عن أن هذا الحال لا يقتل فضول الصغير نحو الجنس ، وإنما يحمله على أن يشبعه في الخفاء . وبهذه الطريقة يكتسب عادات الغش والتكتم ، وتخيم على حياته سحب الخوف والقلق . لقد أظهر التحليل النفسي أن تهديدات الوالدين والمربيات للصغار بالأضرار الناجمة عن الاستمناء ، تعتبر — في الغالب — سببا للاضطرابات العصبية ، ليس فقط في مرحلة الطفولة وإنما أيضا في مرحلة البلوغ .

ومما سبق يتضح لنا أن آثار الطريقة التقليدية في معالجة شئون الجنس ،

تؤدى إلى إلقاء النشء فى أحضان الغباء والخداع والجبن . وتدفع نسبة لا بأس بها إلى تخطى الحد الفاصل إلى الجنون أو مايشابهه .. ولكن القانون ومشرعيه لم يعترفوا بهذا حتى الآن .. وهكذا نجد أن الموقف — فى الوقت الحاضر — يتلخص فى أن كل شخص ممن يتصلون بالأطفال مضطر إلى اختيار أحد أمرين : إما أن يخرق القانون . وإما أن يسبب للأطفال الذين هم تحت رعايته ضررا عقلياً وأخلاقياً ليس من السهل إصلاحه . . ومن الصعب أن نغير القانون ، نظرا لأن معظم الرجال المتقدمين فى السن قد وقعوا فى الخطأ الشائع بأن لذتهم الجنسية تقوم على اعتقادهم بأن الجنس عمل شرير وقبيح ، وأخشى ألا يكون هناك أمل فى إجراء أى إصلاح إلا بعد أن يموت أولئك الذين هم الآن فى أواسط سنى العمر أو فى أواخره .

وجو الغموض الذى يشوب موضوعات الجنس ، يبعث على مضاعفة غريزة حب الاستطلاع الفطرية لدى الصغار حول هذا الموضوع . ولو أن الكبار عالجوا مسائل الجنس بنفس الطريقة التى يعالجون بها أى موضوع صالح للمناقشة ، وذلك بأن يمدوا الطفل بأجوبة لكل مايعن له من أسئلة ، — لما تخبط الطفل فى إرضاء فضوله ، بالدرجة التى تهوى به إلى البذاءة أو الانحطاط الخلقى ، وذلك أن أفضل طريقة لتجنيب الشباب شغل عقولهم وعواطفهم بالأمور الجنسية ، هو أن نتحدث إليهم فيها بتوسع إلى أقصى حد يمكن لهم أن يقبلوا على الاهتمام به .

وعندما أقول هذا إنما أستند إلى أساس من الخبرة العملية ، إننى لم أقل

لطفلی – وأحدهما وقت تأليف هذا الكتاب فى السابعة والثانى بنت فى الخامسة – أن ليس هناك شىء من الغرابة حول الجنس أو حول التخلص من المادة الزائدة عن حاجة الجسم . وقد أبديا اهتماما عاديا وطبيعيا بموضوع : « من أين يأتى الأطفال » ولكن هذا الاهتمام لم يبلغ درجة اهتمامهما بالآلات والسكك الحديدية ، كما أنهما لم يبديا أى ميل نحو الخوض فى مثل هذه الموضوعات ، سواء فى غياب من هم أكبر منهم أو فى حضورهم .

وقد لاحظت – فى مدرستى – أن الأطفال الذين جاءوا إلينا وهم فى السادسة من العمر – أى بعد أن كانوا قد تعلموا من قبل أن يعتبروا أى شىء مرتبط بالأعضاء التناسلية عملا بذيئا – دهشوا عندما وجدوا أن مثل هذه المسائل تناقش فى المدرسة بنفس نبرة الصوت واللهجة التى تستخدم فى مناقشة أى موضوع آخر . وما لبثوا ، عندما علموا بأن الكبار لم يفعلوا شيئاً للرقابة على أحاديثهم هذه ، أن انتابهم الملل تدريجياً ، وأصبحت عقولهم نظيفة ، وأفكارهم صافية نظيفة . . تماماً مثل هؤلاء الذين لم يتحدث إليهم أحد من قبل تحرجا من هذه الأحاديث .

* * *

ونأتى الآن ، على أية حال ، إلى موضوع يحتمل جدلا كثيراً . . ذلك هو : « الأدب المكشوف » .

ينص القانون فى انجلترا وأمريكا – على السواء – على أن للسلطات ،

فى بعض الأحيان ، أن تتلف المطبوعات التى تتضمن «أدبا» يعتبر «مكشوفا» كما يعاقب المؤلف والناشر .

وليس لكلمة «مكشوف» تعريف قانونى محدد ، وإنما الأمر وقف على تقدير القاضى . وهو ليس مقيداً بأن يستمع لشهادة الخبراء ليدللوا على أنه فى حالات خاصة يعتبر نشر هذه الكتب والمقالات التى تعتبر « أدبا مكشوفا » تحقيقاً لبعض الأهداف والأغراض المفيدة . ومعنى هذا ، أن أى شخص يؤلف رواية ، أو يكتب رسالة اجتماعية أو اقتراحا لتعديل القانون بصدد موضوعات الجنس . . مثل هذا الشخص عرضة لإتلاف عمله هذا ، بمجرد أن يتراءى لكهل متزمت أن قراءة مثل هذا الانتاج الأدبى يعتبر عملا شائناً . . مثل هذا القانون ذو آثار بالغة الضرر على الثقافة الجنسية ، إذ يعرض السليم منها لنفس مايتعرض له الغث . وبذلك فانه يعرقل نشر الحقائق الجنسية .

●

الفصل الثامن

مكان الحب من الحياة الإنسانية

قد يكون من العجيب أن يكون الاتجاه السائد فى مختلف المجتمعات إزاء الحب اتجاها مزدوجا : فهو ، من ناحية ، الموضوع الرئيسى فى الشعر والقصص والمسرحيات . . وهو ، من ناحية أخرى ، موضع تجاهل من معظم كبار علماء الاجتماع ، فهم لا يعتبرونه أحد العناصر الضرورية اللازمة لمشروعات الاصلاح الاقتصادية والسياسية . غير أنى لا أعتقد أن لهذا الاتجاه مايبرره . فأنا أعتبر الحب أحد الأشياء البالغة الأهمية فى الحياة الإنسانية ، كما أعتبر أن أى نظام يتدخل بلا ضرورة فى نموه بحرية .. إنما هو نظام فاسد .

والحب ، إذا استعملت الكلمة بمعناها الصحيح ، لا يشير إلى كافة العلاقات بين الجنسين ، ولكنه ينشىء عاطفة ملموسة ، وصلة نفسية وجسدية طبيعية عبرت عنها القصة الألمانية «تريستان و ايزولدا » كما عبرعنها «ريتشارد فاجنر» فى معزوفته الموسيقية المسماة بهذا الاسم كذلك . ومثل هذه العواطف تعتبر متجاوبة مع تجاوب عدد لاسبيل إلى حصره من النساء والرجال ،

ولكنها ليست شائعة فى كل الأوساط .. وهى لا تتوقف — كما أعتقد — على طبيعة الأشخاص الذين يهمهم الأمر ، ولكن على العادات والنظم فى تلك المجتمعات .

وفى الحياة الحديثة ثلاثة أوجه للنشاط ، شديدة الحساسية ، لا تبنى على تبصر أو تعقل .. تلك هى : الدين ، والحرب ، والحب . ولكن الحب لا يبنى على الحكمة . ونظراً للأسباب التى أوردناها فى الفصول السابقة ، نجد فى العالم الحديث بعض التعارض بين الدين والحب . وأنا أعتقد أن هذا التعارض مما لا يمكن تفاديه أو تجنبه . وفى العالم الحديث أيضاً ، يوجد عدو آخر للحب أشد مراساً من الدين .. هو التفانى فى العمل والإيمان به ، والنجاح الاقتصادى . فمن المسلم به بصفة عامة — وعلى الأخص فى أمريكا — أن الإنسان يجب ألا يسمح للحب بالتدخل فى مهنته ومستقبله . فمن الغباء — ولو أنه قد يكون من قبيل البطولة التى تبعث على الأسى — التضحية بالوظيفة أو المهنة من أجل الحب . على أنه من العبث — وليس من البطولة — التضحية بالحب من أجل المهنة أو الوظيفة . ومع كل هذا ، فإن هذا يحدث ، ويحدث بدون التمكن من تفادى حدوثه ، فى مجتمع يقوم على أساس الكفاح للحصول على المال .

دعنا ننظر الآن إلى المستوى العادى لحياة رجل الأعمال فى أى مكان ، — وعلى الأخص فى أمريكا — فهو ، منذ الوقت الذى يبلغ فيه أشده ، يحشد أصدق جهوده ويسخرها لنجاحه المادى والمالى . وكل ماعدا ذلك ، لهو وتسلية . . وهو يشبع رغباته الطبيعية ، فى سنى الشباب ، عن طريق

الاتصال بالبغايا ، ثم يتزوج بعد ذلك . غير أن ميوله وأهواءه وهواياته غالباً ما تكون مختلفة تماما مع ميول زوجته ، وهو بحكم تعدد مشاغله لا يتسنى له أن يندمج معها ويصبح وثيق الصلة بها . إذ أنه يعود إلى داره فى وقت متأخر من الليل ، وقد أضناه التعب والإرهاق ، ثم يستيقظ قبل أن تصحو زوجته من النوم . . وهو لا يبذل — لذلك — أى جهد لكى يشاطر زوجته الميول والهوايات . . كما أنه لا يجد وقتاً لممارسة أى قدر زائد من الحب غير المشروع ، على الرغم من أنه لا يحجم عن التردد من وقت لآخر على إحدى المومسات ، منتهزاً بذلك فرصة بعده عن المنزل ، عندما يكون فى سفر بعيد لتأدية عمل من الأعمال ومن المحتمل أن زوجته قد تبدى نحوه برودا جنسياً ، ما دام لا يبدى لها قدرا كافيا من الاهتمام ، فاذا به يصبح ناقماً على حياته ، غير راض عنها ، دون أن يدرى لذلك سبباً معقولا . . وهو لذلك يفثأ غيظه ونقمته بانهماكه الشديد فى عمله ، وإقباله عليه فى لهفة ، كما أنه قد يطرق أبواباً أخرى يكون أقل رغبة فيها ، كمشاهدة المباريات الرياضية الهامة ، أو كأوجه النشاط التى تهدر المبادىء الأخلاقية . وبالمثل ، تكون زوجته ناقمة ساخطة محنقة ، تندب حظها العاثر ، وتحاول أن تتلمس العزاء فى الثقافة الرخيصة ، أو فى تمجيد الفضيلة عن طريق النقمة والحسد للموفقين فى حياتهم وحياتهن .

وهكذا ، يتحول الجوع الجنسى وعدم الارتواء — لدى كل من الزوج والزوجة — إلى كراهية للجنس البشرى ، تتوارى تحت ستار الشعور العام والرغبة فى الوصول إلى مستوى أخلاقى رفيع . وتعزى هذه الحالة المحزنة

— فى الغالب — إلى الفهم الخاطىء لمطالبنا الجنسية . ولقد اعتقد القديس « بولس » أن الشىء الوحيد الذى يرجى من الزواج ، هو إتاحة الفرصة لممارسة الاتصال الجنسى ، وقد شجع رجال الأخلاق المسيحيين هذا الرأى .

والحب شىء بعيد تماما عن أن يكون مجرد رغبة فى الجماع الجنسى . إنه الوسيلة الرئيسية التى يلجأ إليها معظم الرجال والنساء للهرب من الوحدة التى يعانونها خلال الجزء الأكبر من حياتهم .. والحب العاطفى المستمر يضع حدا لهذا الشعور بالوحدة ، ويفتت حدود الأنانية المستحكمة ، وذلك عن طريق إنتاج مزيج جديد من شخصين ، وصياغتهما فى قالب واحد . فإن الإنسان لم يخلق بطبيعته ليقف وحيدا كما أنه لا يستطيع أن يؤدى غرض الطبيعة البيولوجى إلا بمساعدة إنسان آخر . والناس المتمدينون لا يمكنهم إشباع غريزتهم الجنسية تماما إلا عن طريق الحب . ولا يمكن للغريزة أن تشبع إلا إذا اشترك الرجل بكيانه كله ، وتضافر عقله وجسده ، لإحداث الارتواء المنشود . إن هؤلاء لذين لم يهتدوا إلى روح الزمالة الأصيلة والمودة الخالصة العميقة التى تلزم لرعاية الحب السعيد المتبادل ، قد فقدوا أفضل ما يمكن للحياة أن تهبه للانسان وهم يحسون بذلك شعوريا ولاشعوريا ، ويتجه بهم عدم الرضا الذى يسفر عن ذلك ، إلى الحسد والغيرة والظلم والقسوة .

ومن الصعب — بالنسبة لمن تنقصهم الخبرة والدراية بالحب — التمييز بين عاطفة الحب ومجرد الجاذبية الجنسية . ونلمس هذا على الأخص فى حالة الآنسات اللائى يتلقين تعليما جيدا وتربية رصينة مهذبة . فمثل أولئك الفتيات

يعلمن أنه لا يمكنهن أن يقبلن رجلا إلا إذا أحببنه . وغالباً ماتكون كل عذراء — عندما تتزوج — فريسة لجاذبية جنسية تافهة عابرة ، ويسهل على المرأة ذات التجربة الجنسية أن تميز بينها وبين الحب . وقد كان هذا سبباً غالباً ، يرجع إليه عدم النجاح فى الزواج . فإن أيا من الزوجين قد يؤدى به تفكيره إلى تعكير صفو هذه العلاقة وتسميم جوها ، لمجرد اعتقاده أن العلاقة الجنسية إثم .

وتفخر النساء — اللائى نلن حظاً من الثقافة — ببرودهن الجنسى وتمنعهن ، وبعدم تساهلهن فى السماح بممارسة الاتصال الجنسى . ولكن العاشق المجرب الماهر يستطيع أن يتغلب على هذا الاحجام والصد ، أما الرجل الذى يعجب بهذه الصفات ويحترمها ، باعتبارها أدلة على طهر المرأة وعفتها ، فلا سبيل له إلى التغلب عليها . وينتج عن هذا أن العلاقات بين الزوجين تبقى ، حتى بعد مضى سنوات عديدة من الزواج ، محصورة فى أضيق نطاق ، وسطحية إلى حد كبير أو قليل .

وهناك عقبة سيكولوجية أخرى تقف دون ازدهار الحب ونموه بحرية كاملة ، فى العصر الحديث ، تلك هى خوف كثير من الناس من عدم الإبقاء على تكامل شخصيتهم . وهذه صورة حديثة من الخوف والهلع ، تتسم بالغباء المستحكم .. فالشخصية الفردية ليست غاية فى ذاتها ، وإنما هى شىء يجب أن يتصل بالعالم والحياة العامة باستمرار . ويعتبر الحب ، والأطفال ، والعمل من أعظم البواعث على جعل صلة الفرد مع بقية العالم مجدية مثمرة . ويحتل

الحب ، من بين هذه البواعث ، مكان الصدارة . فإن المركز الاجتماعى وحده لايستطيع أن يجعل اتصال الإنسان بالعالم الخارجى مثمرا ، وإذا كان العمل يؤدى إلى هذه النتيجة أو لايؤدى ، فإن ذلك يتوقف على الروح التى تمارس بها العمل . فإذا كان هدف العمل هو المال فقط ، فإنه يقصر عن تحقيق هذه النتيجة . إذ أن العمل المثمر هو الذى يتطلب شيئاً من التضحية ، سواء نحو الأشخاص ، أو الأشياء ، أو لتحقيق فكرة أو صورة معينة . والحب فى ذاته لا يكون ذا قيمة إذا اتسم بطابع الحيازة والملكية المجردة ، لأنه يستوى آنذاك مع الوظيفة ، التى هى مجرد وسيلة للحصول على المال . وإنما تتولد قيمة الحب من التسليم بأن تكون « ذات » المحبوب فى نفس الدرجة من الأهمية التى للمحب ، فيشعر الإنسان كأن عواطف الشخص الآخر ومشاعره هى ذاتها عواطفه ومشاعره . وبعبارة أخرى ، يجب أن يتسع نطاق الشعور الغريزى فلا يكون مجرد شعور أنانى بالرغبة فى التقبيل والعناق . كل هذا أصبح من الأمور الصعبة ، فى مجتمعنا الذى يتصف بالمنافسة والتطاحن وتقديس الشخصية .

ويعانى الحب — بمعناه الجدى الذى نتكلم عنه — خطرا جديداً بين أبناء عصرنا المتحررين . وذلك هو عدم شعور الناس بمدى الفواصل والحدود الأخلاقية ، التى تفصل بين ماهو مباح وبين ما هو محظور من الأفعال ، لاسيما فى الاتصال الجنسى . فإن الناس غالباً ما يعتادون فصل الجنس عن العواطف الجدية وعن الشعور بالمحبة ، بل إنهم قد يربطون بينها وبين الشعور بالكراهية .

فهم ينظرون إلى الاتصال الجنسى على أنه مجرد ضرورة طبيعية . أما القيم العليا المرتبطة بها فهى غير معروفة بالنسبة إليهم . فى حين أن فصل الحب عن الجنس — فى الزواج — لن يحقق أى ارتواء عميق للغريزة .

إن الحب قوة بوهيمية فوضوية ، إذا ما تركت حرة فإن تبقى داخل أية حدود يقيمها العرف أو القانون . وهذا لا يهم كثيرا ، إذا لم يترتب عليه إنجاب الأطفال . على أننا بمجرد أن يظهر الأطفال ننتقل إلى نطاق آخر مختلف ، لا يسير فيه الحب على وتيرة واحدة ، ولكنه يخدم غرضا بيولوجيا ، هو حفظ النوع . ومن ثم يجب أن تنشأ قوانين أخلاقية اجتماعية تتعلق بموضوع الأطفال وتغلب جانب عاطفة الحب ، عند حدوث أى نزاع . لا لأن الحب عاطفة جميلة فى ذاتها فحسب ، ولكن لأن من الخير للاطفال أن يشاهدوا أن والديهم يتبادلان الحب والود .

●

الفصل التاسع

الزّواج

أود فى هذا الفصل مناقشة موضوع الزواج ، مع إغفال الإشارة إلى الأطفال ، أى من حيث هو علاقة بين الرجال والنساء فقط .

يختلف الزواج عن أى نوع آخر من العلاقات الجنسية ، من حيث إنه نظام أنشأه القانون ، فهو إذن نظام قانونى ، كما أنه يعتبر نظاماً دينياً فى كثير من البلاد . غير أن الجانب القانونى هو الأكثر أهمية . وهذا النظام القانونى ، يتناول بصفة مجردة تجربة توجد بين مختلف الحيوانات . فإن الحيوانات تمارس نوعا من الزواج ، إذ يكون تعاون الذكر مع الأنثى ضروريا لتنشئة الصغار . ونحن نجد بين الحيوانات — بوجه عام — أن الذكر يقتصر فى الزواج على أنثى واحدة .. وفى بعض فصائل القردة الشبيهة بالإنسان نجد أن هذه الحيوانات السعيدة لا تواجه المشاكل التى تقوض المجتمعات الإنسانية ، لأن الذكر يمتنع ، بمجرد الزواج ، عن النظر إلى أية أنثى غير زوجته ، كما تمتنع الأنثى بمجرد زواجها ، عن النظر إلى غير زوجها . . بالرغم من أن

هذه الحيوانات لا تستند فى حياتها إلى مساعدة الدين ، فالرذيلة غير معروفة ، والغريزة تـكفى وحدها لإبراز الفضيلة .

وتقوم بعض الأدلة على أنه يوجد بين أحط درجات المتوحشين ، صفات مشابهة لما تقدم ذكره . فقبائل « البوشمن » يلتزمون الزواج بواحدة . ويبدو من المحتمل أن ما أوجب فـكرة الزواج بواحدة فقط ـ لدى القبائل البدائية ـ كان راجعاً إلى تدخل العامل الاقتصادى . وعندما يصبح لهذا العامل تأثير على السلوك الجنسى ، فإنه يصبح من الخطورة بمكان ، نظراً لأنه يستبدل علاقات العبودية أو الشراء ، بعلاقات تقوم على الغريزة . وقد كانت النساء يعتبرن ـ فى بيئات الزراعة والرعى القديمة ـ من المتاع الاقتصادى للرجل . إذ كانت النساء والأطفال يساعدون رب الأسرة فى العمل . ومن ثم فإن الرجل القوى كان يميل دائماً إلى اقتناء أكبر عدد ممكن من الزوجات . وما لم يكن هناك فائض بين الاناث . فإن تعدد الزوجات كان ميزة مقصورة فقط على الزعماء والأثرياء من علية القوم . وكانت كثرة الزوجات والأولاد تعتبر ثروة قيمة ، وبالتالى فإنها كانت تعزز المركز الممتاز للرجل . وهكذا كانت الوظيفة الأولى للزوجة هى أنها مصدر ربح . أما وظيفتها الجنسية ، فكانت تأتى فى الدرجة الثانية وفى هذا الدرك الأسفل من المدنية ، يصبح من الميسور ـ كقاعدة ـ أن يطلق الرجل زوجته ، بينما يستحيل على الزوجة أن تطلق زوجها .

ويعتبر موقف معظم المجتمعات نصف المتمدينة بالنسبة للزنا شيئاً مماثلا

لما سبق . ففى الدرك الأسفل من المدنية ، كان الزنا يعتبر من الأمور المتساهل فيها . فكان الرجل الذى يحاول مجامعة امرأة فى عصمة رجل آخر ، يعتبر مجرما . أما إذا جامع امرأة غير متزوجة ، فلا لوم عليه ، إلا إذا أبخس قدرها فى سوق الزواج .

وبمجىء المسيحية ، تغيرت هذه النظرة للأمور . فأصبح الجانب الدينى عنصرا هاما فى الزواج ، وبينما ظلت مسألة جماع رجل لامرأة متزوجة من آخر وصمة وإهانة وخطيئة فى حق ذلك الرجل الآخر ، فان المجامعة الجنسية خارج نطاق الزواج اعتبرت خطيئة فى حق الله . . كما أن القداسة التى أضفاها الدين على الزواج جعلت الطلاق أمراً غير مسموح به .

ترى ، أكان ذلك مكسباً للسعادة الإنسانية أم خسارة لها ؟ . هذا شىء من الصعب الجزم به .

* * *

وإذا ما أجلنا النظر حولنا فى أرجاء العالم فى الوقت الحاضر ، وتساءلنا عن الأسباب التى تؤدى بصفة عامة إلى السعادة فى الزواج ، وتلك التى تؤدى إلى الشقاء ، فإننا نخلص إلى نتيجة غريبة نوعا ما : وهى أن أكثر الناس حضارة ومدنية ، يصبحون أقل الناس حظاً من السعادة حين يقضون العمر كله مع شريك واحد .

يعيش الفلاحون الايرلنديون حياة سعيدة فاضلة ، على الرغم من أن آباءهم

هم الذين كانوا يتحكمون — إلى وقت قريب — فى مستقبلهم ويقررون مصير زواجهم، أخبرنا بذلك، الرحالة الذين تعرفوا إلى أحوالهم ودرسوا طباعهم .. ذلك لأن الرجل قد لايجد مجالا للأسف إذا كانت زوجته تختلف عن سواها من النساء، وكذلك الحال بالنسبة للمرأة إزاء الرجل الذى تتزوجه. أما إذا كان الزوجان مختلفين فى الميول والمشارب، فهنا مبعث الأسف والأسى، كذلك نجد أن من دواعى السعادة أن يستحيل على كل من الزوج والزوجة أن يحظى بالمتعة الجنسية مع غير صاحبه. إذ أن هذا يضطر كلا منهما إلى أن يفيد من وضعه إلى أقصى ما يستطيع.

هذا ويرتبط بعض أسباب الشقاء بالمدنية والحضارة. ولكن البعض الآخر من هذه الأسباب يختفى إذا ما كان الرجال والنساء أكثر مدنية مما هم عليه .. وأكثر هذه الأسباب أهمية هو الثقافة الجنسية الرديئة، التى تبدو متفشية إلى حد كبير بين الطبقات المترفة عنها بين أهل الريف، والسبب فى ذلك، أن أطفال الفلاحين يألفون فى سن مبكرة ما يسمى « بحقائق الحياة » ، لاسيما وأنهم يلاحظونها بين الحيوانات .. وعلى النقيض من ذلك، فإن أطفال الطبقة المترفة ـ الذين نالوا قسطاً كبيراً من التعليم ـ يقوم بينهم وبين المعرفة العملية بأمور الجنس ستار، بل إن معظم الآباء ذوى العقلية الحديثة الذين يعلمون أولادهم ويثقفونهم عن طريق الكتب، لايتيحون لهؤلاء الأبناء تلك الألفة العملية التى يكتسبها أبناء الفلاحين فى سن مبكرة.

وتحبذ التعاليم المسيحية، ألا يكون للرجل والمرأة ـ عند الزواج ـ

أية خبرة جنسية سابقة . وفى نسبة كبيرة من الحالات التى يحدث فيها هذا ، تكون النتائج سيئة مروعة . فالسلوك الجنسى بين البشر ليس غريزيا ، والعروسان اللذان لا يكونان على خبرة بالمسائل الجنسية ، لايلبثان أن يجدا أن الخجل والجهل يثيران فى حياتهما المتاعب . يكون من الأفضل لو أن المرأة وحدها اتسمت بالبراءة والطهر ، بينما يكون الرجل اكتسب خبرة جنسية مع البغايا .

إن معظم الرجال لايدركون أن عملية المغازلة والمداعبة لازمة وضرورية بعد الزواج ، كما أن كثيراً من السيدات الفضليات لايدركن مدى الإساءة التى يلحقنها بالزواج ، ببقائهن متحفظات منعزلات من الناحية الجسمية . ومن الميسور إصلاح كل هذا ، بحيث تستقر الأوضاع ، لو أن هناك ثقافة جنسية أفضل . وهذا هو مايحدث الآن مع الجيل الجديد .

ولقد أدت المدنيــــة إلى إتاحة فرص كثيرة أمام الزوجات للخيانة الزوجية ، وذلك بسبب إطراد التوسع فى منح الحريات للنساء . فإن الفرص تعطى مجالا للتفكير ، والتفكير يوقظ الرغبة ويذكيها .. وعند غياب الوازع الدينى ، فإن الرغبة تتحول إلى عمل ! . ولقد أدى تحرير المرأة إلى جعل الزواج أكثر صعوبة من ذى قبل . فقد كان يتحتم على الزوجة — فى الأزمان الغابرة — أن تكيف نفسها بحيث تتلاءم مع الزوج ، فى حين أن الزوج لم يكن مضطرا إلى أن يكيف نفسه بحيث يوائم زوجته . وفى أيامنا الحاضرة ، نجد أن كثيراً من الزوجات — استناداً إلى حقوق المرأة فى الاحتفاظ

بشخصيتها الفردية وبمهنتها الخاصة – لسن على استعداد لأن يتواءمن مع أزواجهن بعد حد معين ، بينما نجد أن الرجال الذين ما زالوا يتشبثون بالتقاليد القديمة – التي تبيح سيطرة الذكور – لا يستطيعون أن يستسيغوا مبرراً لعدم امتثال النساء لرغبات أزواجهن . . ولهذا كله أثره فى الحياة الزوجية ، لاسيما فيما يتعلق بالخيانة الزوجية . فى الأيام الغابرة ، كان من المحتمل أن يميل الزوج إلى خيانة زوجته مع أية امرأة أخرى ، من وقت لآخر ، دون أن تعلم . فإذا علمت كان من السهل عليه أن يقنعها بندمه وتوبته .. وكانت الزوجة تقابل خيانة زوجها بالتشبث بالفضيلة . فإن خانته بدورها ، لم يتقبل – من ناحيته – ندما منها ولا توبة !

وحينما لا يكون الوفاء المتبادل واجباً – كما هو الحال فى كثير من الزيجات الحديثة – فإن الغيرة تبقى مع ذلك كغريزة . وغالبا ما تقضى على كل ما كان مستكنا فى الأعماق من علاقات الود الخالص بين الزوجين ، حتى ولو لم تحدث مشاجرات صريحة .

وثمة صعوبة أخرى تقف فى طريق الزواج الحديث ، ويحس بها – على الأخص – هؤلاء الذين يقدرون قيمة الحب حق قدرها . فإن الحب لا ينمو ولا يترعرع إلا إذا كان يعيش منطلقاً على سجيته ، فى جو من الحرية ، ولا يقتل الحب قدر الشعور بأنه واجب مفروض . والزواج مزيج من الحب فى إطار من الروابط الشرعية بين طرفيه .

* * *

لكل هذه الأسباب أصبح الزواج مشكلة عويصة . ولقد اقترح كثيرون حلا واحداً ، جرب حالياً على نطاق واسع فى أمريكا ، وهو الطلاق السهل (أو تيسير الطلاق) . ولكنى لا أعترف بأن تيسير الطلاق يعتبر حلا لمشا كل الزواج . ولقد يكون الطلاق حلا سليما لعدم التوفيق ، إذا لم يكن الزواج قد أثمر أطفالا . أما إذا كان قد أثمر ، فإن استقرار الحياة الزوجية يصبح ضرورة لازمة . (وهذا الموضوع سنعود إليه عند الكلام عن الأسرة) وأعتقد أن الزواج الذى يكون مثمرا ، والذى يتصف طرفاه بالحكمة وحسن التصرف ، يكون محتمل الدوام . . إن الزواج الذى يبتدىء بحب عاطفى جياش ، ويؤدى إلى انجاب أطفال يرغب آباؤهم فى وجودهم ، ويكنون لهم كل محبة وإعزاز ، خليق بأن ينتج ارتباطاً عميقاً وثيقاً ، يمتد إلى أبعد الأغوار بين الرجل والمرأة ، لدرجة يشعران معها بأن ثمة شيئاً أغلى من كل تقدير يتوج حياتهما المشتركة ، حتى بعد أن تفتر الرغبة الجنسية . . وحتى إذا شعر أحدهما أو كلاهما بعاطفة أو برغبة جنسية نحو شخص آخر ! . . وكذلك نجد أن المعاشرة الطيبة بين الزوجين ، تخلق لهما حياة تبعث على الرضى وتمتلىء بالذكريات البهيجة ، بحيث لا يسهل على أى منهما أن يتخلى عنها من أجل حب جديد !

وعلى هذا ، فمن الممكن للرجل المتمدين والسيدة المتمدينة ، أن يسعدا فى زواجهما . وتحقيقاً لهذا الهدف الأسمى ، لابد من استيفاء عدد من الاشتراطات : فيجب أن يسود الطرفين الشعور بالمساواة ، فلا يتدخل أى

منهما فى حرية الآخر ، كما يجب أن يكون هناك أكبر قدر من الصداقة المتينة والألفة المادية والعقلية والروحية ، وأن يكون هنالك نوع من التماثل فيما يتعلق بمستوى القيم والمبادىء .

وباستيفاء كافة هذه الاشتراطات ، أعتقد أن الزواج يغدو أفضل وأهم علاقة يمكن أن تنشأ بين اثنين من البشر .

●

الفصل العاشر

البغاء

تعتبر محافظة المرأة على عفافها - فى الأسرات الكريمة - أمرا عظيما كبير الأهمية . لهذا فقد بات من الضرورى أن يستكمل نظام الزواج بنظام آخر يمكن أن يعتبر فعلا كجزء منه .. وأعنى بذلك نظام البغاء . فهناك شىء من الإجماع على أن البغاء يعتبر صمام الأمن بالنسبة لعش الزوجية ولصون عفاف زوجاتنا و بناتنا . وهذا رأى قديم ، ولكنه واقعى . ذلك لأن الحاجة إلى البغاء تنشأ من أن كثيراً من الرجال إما أن يكونوا عزاباً ، أو أن يكونوا كثيرى التغيب عن بيوتهم بسبب أعمالهم . ومثل هؤلاء الرجال لن يرضيهم ولن يسعدهم أن يكبتوا عواطفهم . . ولهذا فإن المجتمع يعزل طبقة خاصة من النساء ، ويخصصهن لإشباع الرغبات و الحاجات الغريزية الجنسية التى تساور الذكور ، والتى يخجلون من الاعتراف بها ، على الرغم من أنهم لايحبون أن يتركوها بلا ارتواء .

وللمومس ميزة : ففضلا عن كونها سهلة المنال فى أية لحظة ، فإن علاقة

الرجل بها يمكن أن تظل فى طى الكتمان ، لأنها علاقة عابرة ، فلا تؤثر على حياة الرجل العائلية والزوجية . وعلى الرغم من الخدمة التى تؤديها المومس للمجتمع ، وعلى الرغم من أنها تحمى فضيلة الزوجات والبنات وتفتديها بعرضها ، فإن هذه المرأة البائسة محتقرة فى جميع أنحاء العالم . وقد ابتدأ هذا الظلم الصارخ منذ انتصار المسيحية .

لم يكن البغاء – قبل المسيحية – موضع احتقار كما هو الآن ، بل كان ينتمى إلى أصل رفيع مقدس . فقد كانت البغى – فى الأصل – راهبة منقطعة لعبادة إله أو آلهة ، وتقدم خدماتها للغريب العابر الذى يمر بمكان العبادة ، فكان عملها يعتبر من طقوس العبادة . وفى تلك الأيام ، كانت المومس تعامل باحترام .

لقد ملأ الآباء المسيحيون صحائف عدة من الاعتراضات وآيات الاحتجاج ضد هذا النظام الذى أظهر عنف الرغبات الجنسية وجموحها فى عبادة آلهة مزيفة تحت ستار من الدمقس والحرير . ثم كان أن أغلقت المعابد . وأصبح البغاء فى كل مكان بالصورة التى انتشر بها فى كثير من البلدان – كمجرد نظام تجارى – يمارس بقصد الربح . . وغالباً ما يكون هذا الربح من نصيب أفراد يتجرون بالمومسات ويستغلونهن .

ويبدو أن البغاء آخذ فى الزوال ، اللهم إلا فى أمريكا الجنوبية ، وقد يرجع ذلك إلى توافر سبل أخرى كثيرة للعيش بالنسبة للنساء عن ذى قبل . وقد يرجع – من ناحية أخرى – إلى أن كثيرا من النساء تعودن أن تكون

لهن علاقات مع رجل خارج نطاق الزواج بمحض إرادتهن وميلهن .
وأياما كان الأمر، فاستبعد أعتقد أنه من الممكن القضاء على البغاء كلية . خذ مثلا ، حالة البحارة الذين يعودون للبر بعد رحلة طويلة . فليس من المتوقع من هؤلاء الرجال ، أن يمسكوا أنفسهم عمن يصادفهم من النساء . أو خذ مثلا ثانياً ، تلك الفئة الكبيرة من الرجال الذين لم تتح لهم فرص السعادة فى زواجهم ، أو لم يظفروا بالرى الجنسى معهن : فمثل هؤلاء الرجال يبحثون عن الراحة والمتعة بعيدا عن بيوتهم ، ويطلبونها حرة طليقة ، خالية من الالتزامات .

غير أن هناك ـ على أية حال ـ أسبابا خطيرة تدعو إلى التخفيف من البغاء إلى أدنى حد ممكن . يؤيد ذلك موضوعات ثلاثة على جانب كبير من الأهمية : أولها ، الخطر على صحة المجتمع . . وثانيها ، الضرر النفسى الذى يحدث للنساء . . وثالثها ، الضرر النفسى الذى يصيب الرجال .

وأهم هذه العوامل الثلاثة ، هو الخطر على الصحة العامة ، فإن الأمراض السرية غالباً ما تنتشر عن طريق المومسات ، وقد تبين أن جميع المحاولات التى بذلت للتغلب على هذه المشكلة ـ عن طريق تسجيل وحصر البغايا وفرض رقابة الدولة والفحص الطبى عليهن ـ ذهبت أدراج الريح، ولم يكتب لها النجاح . وفضلا عن ذلك ، فإن هؤلاء الذين يصابون بالأمراض السرية ، غالبا مايتوانون فى العلاج نظرا لخجلهم .

ومن المسلم به أن البغاء ـ كما يوجد فى الوقت الحاضر ـ يعتبر لوناً من

الحياة غير المرغوب فيه ، لما فيه من إهدار للمبادىء الأخلاقية والمثل العليا لكل من الجنسين .

والتردد على البغايا قد يكون ذا تأثير نفسى ضار على الرجل ، إذا ما أصبح عادة . فهو يعوده على أن مراودة المرأة وملاطفتها - قبل العملية الجنسية - أمر غير ضرورى . كما أنه قد يوحى إليه بازدراء النساء . وكلا الحالين قد يؤثر على الحياة الزوجية للرجل . إذ أن الرجل يعتاد على أن ينظر إلى الزوجة كمطية لإرضاء شهوته الجنسية كلما شاء ، وينسى أن الجماع بين الزوجين لا يكتمل إلا إذا قام على رغبة من الطرفين ، وإلا إذا سبقه تمهيد من المداعبة والملاطفة .

إن تدخل الباعث المالى فى أمور الجنس ، له دائماً آثار فظيعة مقيتة . فإن العلاقات الجنسية يجب أن تكون لذة حسية مشتركة ، يصل إليها الطرفان بهدى غريزتهما وحدها . ومن هنا فإن البغاء - بوضعه المعهود - قد يؤدى لدى الشخص المرهف الحس والمشاعر إلى تأنيب الضمير والألم ، وبالتالى ، إلى الاضطراب النفسى للرجل .

●

الفصل الحادى عشر

زواج التجربة

أثبتت التطورات الاجتماعية والأخلاقية أن الرجال والنساء على السواء ، لا ينتظرون حتى يتزوجوا لكى يمارسوا الاتصال الجنسى ، بل أنهم يقبلون عليه قبل الزواج بوقت طويل . ففى حالة الرجال ، يتسامح المجتمع إذا ما كان اتصالهم الجنسى على فترات معقولة ، ومع البغايا وفى طى الكتمان . أما فى حالة النساء ، فقد وجد رجال الأخلاق أنه فيما عدا حالة البغايا المحترفات أن السمو الأخلاقى قد أصبح عسير التحقيق ، لاسيما بعد التطور الكبير الذى حدث منذ أن وضعت الحرب أوزارها فى كل من أمريكا وانجلترا وألمانيا واسكندنافيا . إذ طرح كثير من فتيات الأسرات الكريمة فكرة المحافظة على عفتهن جانباً ، حتى لا يحرمن من الرى العاطفى ، لاسيما وأن العوامل الاقتصادية تقعد بالشبان عن الزواج .

ويبدو أن هذا التطور كان ذا أثر كبير وانتشار بعيد المدى فى الولايات المتحدة عنه فى انجلترا . وهذا يعزى فى رأيي إلى قوانين التحريم وإلى السيارات . فبالنسبة للمنع والتحريم ، أصبح من الطبيعى فى كل حفلة من حفلات السمر

التى يغلب فيها طابع المرح والبهجة أن يقبل المجتمع بدرجة قليلة أو كبيرة على كؤوس الراح حتى الثمالة . ونظراً لأن نسبة كبيرة جداً من الفتيات يمتلكن سيارات خاصة ، فقد أصبح من السهل عليهن أن يهربن مع عشاقهن بعيداً عن عيون الآباء والجيران .

وقد اتضح من الحالة الشائعة فى أمريكا ، أن نسبة كبيرة جداً من الفتيات اللائى يتزوجن ويتمتعن بقدر كبير من احترام المجتمع ، كانت لهن تجارب جنسية مع جملة عشاق . وحتى إذا لم يكن قد حدث جماع جنسى بالمعنى المفهوم ، فهناك ولا ريب الكثير من الملاطفة والملاعبة والعناق المثيرة لدرجة لا يصبح معها غياب الجماع الكامل مانعاً من الشعور باللذة والمتعة .

ولست أملك أن أقول أن الأحوال الراهنة تبعث على الرضى . فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن هناك ميلاً كبيراً جداً إلى السكر والعربدة والعبث الجنسى بين الشباب . وأن هذا الميل بلغ أقصاه بين فتيات الطبقة الراقية فى أمريكا . وكما أن من السهل التحايل على القانون فيما يتعلق بالخمر ، فكذلك نجد أن هناك محاولات للعبث مما تعارف عليه الناس فيما يتعلق بالجنس . وإذا كان رجال الأخلاق قد أفلحوا فى شىء ، فإنهم نجحوا فى أن يحملوا على الشباب على اعتبار الخمر سموما .

لقد كان من جراء تزمتهم إزاء الخمر ، أن أقبل الشباب عليها . وكذلك الحال إزاء الجنس ، فإن تزمتهم أدى إلى الإغراء على التلاعب بما تعارف عليه الناس فى محيطه . فإذا العلاقات الجنسية بين الشبان والفتيات

تتخذ أشد الأشكال زراية.. إذ أن التحريم يغرى، والقيود توحى بالتحايل، والتحايل قد يسوق إلى التخبط المضر. بل إن من الشباب من يذهب به التخبط إلى الإسراف فى تهييج عواطفه ومشاعره، دون أن يصل إلى مرحلة الارتواء، مما يؤدى به إلى الاضطرابات العصبية والنفسية. أما الشبان الذين يذهبون فى الاستهتار إلى مايذهب إليه شباب أمريكا، فإن الخوف من أن تتكشف زلاتهم للأهل أو حماة الآداب والفضيلة، كثيراً مايحملهم على أن يستروا زلاتهم بأعمال خطيرة، كالإجهاض. وفى هذا مافيه من الخطورة، والألم، وخرق للقانون.

وتترتب على الهوة السحيقة التى تفصل بين أخلاق الشباب وأخلاق الشيوخ فى أمريكا اليوم نتيجة أخرى لاتبعث على السرور، هى أنه لا توجد بين الآباء وأبنائهم صلة وثيقة أصيلة تقوم على التفاهم التام وتشوبها روح الصداقة، ومن ثم أصبح الآباء بالتالى غير قادرين على إزجاء النصح إليهم أو إظهار العطف على مشاكلهم. وعندما يقع الصغار فى المتاعب، فإنهم لا يستطيعون مصارحة ذويهم بذلك، خشية أن يترتب عليه ما لا تحمد عقباه من انفجار أو ثورة عاتية قد تؤدى إلى الفضيحة. وهكذا تصبح العلاقة بين الطفل ووالده غير مجدية، بمجرد بلوغ الابن.

والحالة فى انجلترا تشبه — من قريب أو بعيد — الحالة فى أمريكا، ولكن بصورة أقل تفشيا واستفحالا، نظراً لعدم وجود النواهى والتحريم والقيود ولقلة السيارات بالنسبة إلى أمريكا. كما أعتقد أن حالات الإثارة

الجنسية بدون إشباع وارتواء كاملين ، تعتبر قليلة فى انجلترا وأنحاء القارة الأوروبية . فضلا عن أن رجال ونساء الطبقة المثقفة فى انجلترا ليسوا ممتلئين بالرغبة الجارفة العارمة ، على شاكلة رجال ونساء أمريكا .

ولقد اقترح القاضى « بين ب . لندسى » — الذى كان رئيساً لمحكمة الأحداث لعدة سنوات ، وأتيحت له فى هذا المركز فرص نادرة لا نظير لها للتأكد من الوقائع والبيانات — نظاماً جديداً أطلق عليه اسم « زواج المزاملة » . ولسوء حظه أنه فقد وظيفته الرسمية نتيجة لرأيه هذا .

« وزواج المزاملة » محاولة لتقديم شىء من الثبات والاستقرار فى العلاقات الجنسية للشباب ، بدلا من الوضع المضطرب الحالى . فلقد لمس « لندسى » أن مايقف حجر عثرة أمام الشباب فى سبيل الزواج إنما هو العجز المالى . فهم يحتاجون إلى المال للانفاق على الأطفال من ناحية ولأنه لايتحتم على الزوجة أن تكسب عيشها بنفسها من ناحية أخرى . ومن ثم فإنه رأى أن يتاح للشباب نوع جديد من الزواج ، يتميز عن الزواج المألوف بخصائص ثلاث . فأولا : ألا تكون هناك نية أو اتجاه إلى إنجاب الأطفال فى مبدأ الأمر .. وبالتالى يجب أن تقدم إلى الزوجين الشابين أفضل المعلومات الدقيقة عن ضبط النسل والتحكم فى تحديده . وثانياً : أن ييسر الطلاق بمجرد اتفاق الطرفين ، مادام زواجهما لن يثمر أطفالا . وثالثاً : فى حالة حدوث الطلاق ، لايحق للزوجة أن تطالب بنفقة .

وهو يدعى — وأعتقد أنه على حق — أنه إذا ماتقرر مثل هذا النظام

بمقتضى القانون . فإن عددا كبيرا من الشباب — كطلبة الجامعات مثلا — سيقبلون على إنشاء علاقات زمالة وصداقة دائمة ، يترتب عليها وجود حياة مشتركة خالية من الطابع المضطرب الذى تتسم به العلاقات الجنسية فى الوقت الحاضر . وقد دلل على وجاهة رأيه ، بأن الجامعيين الشبان المتزوجين أفضل من غير المتزوجين اجتهادا . ومن الواضح حقاً أن من السهل الربط بين العمل والجنس فى علاقة شبه دائمة ، تتميز عن تلك التى تخلقها الحفلات المثيرة ويدفع إليها الإفراط فى الشراب . ولا يوجد ثمة سبب لأن تكون معيشة أى زوجين معاً أكثر نفقات من معيشة كل منهما على حدة ، وبالتالى فلن يكون هناك مجال للأسباب الاقتصادية التى كانت تعمل دائماً على تأجيل الزواج .

وفى رأيى أن مشروع « لندسى » كسب ، من وجهة النظر الأخلاقية ولكنه قوبل بالسخط والاستنكار والتحامل على الرجل . فقيل إنه يهدم قدسية المنزل ، وإن التسامح إزاء زواج لا يؤدى فورا إلى إنجاب الأطفال ، يفتح الباب على مصراعيه أمام التهتك الجنسى الذى يستتر وراء القانون . وقيل كذلك إنه يبخس من قدر الأمومة الخالصة .

ومع اقتناعى تماما بأن « زواج المزاملة » قد يكون خطوة نحو الاتجاه السليم ، وقد ينتج عنه خير كثير ، إلا أننى لا أعتقد أنه يعمر طويلا . كما أعتقد أن كل العلاقات الجنسية التى لا يترتب عليها إنجاب الأطفال ، يجب أن تعتبر مسائل شخصية بين طرفيها ، ولا تعنى سواهما . ومن ناحية أخرى ، أرى أن من الواجب ألا يقدم أى رجل أو أية امرأة على الزواج بدون أن

تكون لهما خبرة جنسية سابقة . والتجربة الجنسية الأولى ، كما تدل كافة الشواهد على ذلك ، يجب أن تكون مع شخص لديه معلومات سابقة عنها. فإن العمل الجنسى لدى بنى الإنسان ليس غريزيا .

وإذا ما نحينا هذه المناقشة جانباً، فإنه يكون من الغباء أن نسأل الناس أن ينشئوا رابطة من المفروض أنها تدوم ما دامت حياتهم، بدون أية معرفة سابقة بما يتعلق بقدرتهم وبمدى توافقهم الجنسى مع شركائهم فى هذه الرابطة . والطريق السوى - إذا ما اعترف للزواج بوظيفته البيولوجية - هو ألا تترتب عليه آثاره القانونية الملزمة إلا بعد أن تحمل الزوجة للمرة الأولى . ذلك لأن غرض الزواج الحقيقى هو الأطفال لا الاتصال الجنسى ، ولا تكتمل السعادة فى الزواج إلا إذا كان هناك احتمال لإنجاب الأطفال . وهذا الرأى يعتمد أساساً على التمييز بين الزواج ومجرد العلاقات الجنسية التى تتحكم فيها وتنظمها موانع الحمل . فلقد غيرت موانع الحمل طريقة النظر إلى الجنس والزواج بالكلية ، وجعلت من الضرورى التفرقة بينهما ، بعد أن كان الأمر بينهما لا يدعو إلى التمييز . وإذا كان الغرض من الزواج مجرد المزاملة والمرافقة جريا وراء باعث جنسى ، ففى اقتراح القاضى لندسى — الخاص بزواج المزاملة أو المرافقة — الكفاية ! وقد يستهدف الناس فى النهاية تكوين أسرة ورعاية شئونها . وهذه كلها نوازع وغايات متفرقة ، لا يسهل على أى ناموس أخلاقى أن يجمعها فى كل لا يتجزأ ، كما أنه لا يمكن لأية مبادىء أخلاقية قويمة أن تتواءم مع الظروف والتطورات الحديثة .

الفصل الثانى عشر

الأسرة فى الوقت الحاضر

قد ينسى القارئ، عندما يصل إلى هذا الفصل، أننا فى الفصلين الثانى والثالث قد تحدثنا عن العائلات التى ينتمى فيها الأبناء إلى أمهاتهم، وعن العائلات التى تعترف بنظام الأبوة الشرعية، وتأثير ذلك على الآراء الأساسية فى العقائد الجنسية. وقد جاء الوقت الآن لكى نستأنف الحديث عن الأسرة، التى تفسر الأساس المنطقى الوحيد للقيود التى تفرض على الحرية الجنسية.

والموضوع الذى نعالجه الآن هو مدى الثبات والاستقرار فى العلاقات الجنسية، بالقدر الذى تتطلبه مصالح الأطفال. وهذه المشكلة أبعد ما تكون عن البساطة. فمن الواضح أن مدى ما يكسبه الطفل ينشأ من كونه عضواً فى العائلة، ويعتمد على طبيعة ما إذا كانت النظم السائدة أفضل للأغلبية الكبرى من العائلات. ويجب أن نأخذ فى الاعتبار ما إذا كان الأب يلعب دوراً جدياً هاما فى حياة الأسرة، نظراً لأن هذا يدعو إلى اعتبار عفاف المرأة ضرورة يقوم عليها كيان الأسرة.

وعلينا أن ندرس أثر الأسرة على الطفل من الناحية النفسية الفردية وهذا موضوع عالجه فرويد بروح تجنح إلى النقد والتجريح والتهديد . وعلينا أن ندرس أثر النظم الاقتصادية على زيادة أو اضمحلال أهمية الأب في الأسرة . كما أن علينا أن نتساءل عما إذا كنا نرغب في أن تحل الدولة محل الأب وحده ، أو تحل محل الأب والأم معاً .

* * *

من المعتاد بين هؤلاء الذين يعارضون الحرية الجنسية على أسس أخلاقية، معارضة فكرة الطلاق باعتبار أنها تتعارض مع مصالح الأطفال . وهذه الحجة ليست مبنية على إخلاص ، لأن الذين يتمسكون بها يأبون التساهل إزاء استعمال موانع الحمل ، ولو كان أحد الوالدين مصابا بالزهري !

إن الأسرة نظام إنسانى يقوم على أساس بيولوجى ، وهو أن المساعدة التى يقدمها الأب — خلال الحمل والرضعة — من شأنها أن تعمل على المحافظة على الصغار . ولكننا رأينا — من قبل — أن هذه المساعدة لا تقوم فى البيئة البدائية على نفس الأسباب التى تدفع الأب لرعاية أبنائه فى مجتمع متحضر متمدين . إن الأب البدائى الذى يعيش على الفطرة ، لا يعرف أن الطفل يرتبط معه بعلاقة بيولوجية ، فما الطفل — بالنسبة إليه — إلا عبارة عن ثمرة الأنثى التى يحبها . . وهذه هى الحقيقة التى تولد تلك الرابطة الغريزية بينه وبين الطفل . وعند هذه المرحلة لا يرى الأب أية ضرورة بيولوجية فى حماية

عرض امرأته ، على الرغم من أنه سيشعر بلا مراء بغيرة غريزية إذا ما تركت له مسألة الحكم بخيانتها وعدم وفائها . ولنذكر هنا أيضاً ، أن ليس للأب أى قدر من الملكية على الطفل ، إذ أن الطفل يعتبر ملكا لزوجته ولشقيق زوجته ، ولكن علاقته الخاصة بالطفل ليست سوى مجرد نوع من الألفة والعاطفة .

وعلى أية حال ، فإن الانسان لا يلبث أن يتعلم ويعرف أن الطفل ينشأ من نطفته وبذرته ، وانه — بناء على ذلك — يتحتم عليه أن يتأكد من شرف زوجته وعفافها وعدم خيانتها له . وتصبح الزوجة والطفل ملكا له .. ثم يرقى الانسان ويهتدى إلى الدين الذى يقدر لامرأته نوعا من الواجب نحوه . ويعتبر هذا الأمر ذا أهمية بالغة خصوصا بالنسبة للأطفال . ذلك لأنه على الرغم من أن الأب هو الذى يعول الأطفال فى صغرهم ، إلا أنه لا يلبث — فى الشيخوخة — أن يحتاج هو إلى الرعاية . وفى هذه المرحلة، يكون من اللازم على الأبناء أن يكنوا له التوقير والتقدير والاحترام . ويجب أن يكون شعارهم عند ذلك : « احترم أباك وأمك ، حتى تطول أيامهما على الأرض » . وقد كانت الاعتبارات الاقتصادية للمجتمعات الزراعية — التى قامت فى بدء تكوينها على المراعى — هى التى أضفت على الأسرة ثمارها وآتت أكلها . فبالنسبة لمعظم الناس لم يكن من السهل الحصول على أيد عاملة أجيرة . وبالتالى . فقد كانت أسهل طريقة للحصول على العمال ، هى تربيتهم منذ الصغر . وللتأكد من أنهم لابد من أن يخدموا مربيهم —

أى آباءهم — فقد كان من اللازم أن يقوم نظام الأسرة على أساس الدين والأخلاق . ومالبث مبدأ وراثة الابن الأكبر لأملاك أبيه وأراضيه أن بسط سلطان الأسرة على الفروع الأخرى ، فتضاعفت بذلك قوة رب الأسرة . . وظهرت العشيرة ، ثم الدولة ونظام الملكية والارستقراطية .

وعندهذه النقطة من ازدهار الحضارة، كانت قوة الأسرة قد بلغت أوجها، فبدأت تتخذ اتجاها عكسياً جديداً ، فلم تلبث الأسرة أن أصبحت فى العالم الغربى مجرد ظل باهت لما كانت عليه من قبل . وترجع بعض الأسباب التى أدت إلى تفكك الأسرة إلى عوامل اقتصادية ، والبعض الآخر إلى عوامل ثقافية . . بل إن الأسرة لم تكن — حتى عندما اكتمل نموها — نظاما ملائما لأهل الريف من السكان وبعض المجتمعات، كالتجار والاشخاص الذين ترتبط حياتهم وتتصل بالبحار . فقد كانت التجارة فى جميع العصور ماعدا العصر الحالى — السبب والحافز الأول على المعرفة والثقافة ، نظرا لأنها أوجدت علاقات بين الشعوب المختلفة والعقليات والعادات المتباينة — وبالتالى — فقد حررت عقول ممارسيها من التعصب القبلى والطائفى وهكذا نجد أن الشعوب التى مارست التجارة ، وارتياد البحار — كاليونان — كانت تعنى بالرق أكثر مما تعنى بالأسرة .. لا سيما وأنه عندما يسافر رب الأسرة فى رحلة طويلة، فإن أفراد الأسرة يتحررون — فى غيابه — من الرقابة .. وبالتالى، فإن الأسرة تضعف نسبياً . وقد كان لزحف سكان الريف على المدن ، وهو طابع مميز لكافة عصور الحضارة الناشئة ، نفس الأثر الذى كان للتجارة البحرية فى إضعاف الأسرة .

والأثر الآخر - الذى قد يكون أكثر أهمية لارتباطه بالطبقة الدنيا من المجتمع - هو الرق . فقد كان السيد لا يبدى احتراما يذكر لعلاقات الأسرة بين عبيده ، بل كان يمكنه أن يفرق بين الأزواج وزوجاتهم إذا ما طاب له ذلك ، كما كان يستبيح لنفسه أن يجامع أية امرأة تروق له من بنات أو زوجات عبيده .

على أن هذه العوامل ، لم تضعف الاسرة الارستقراطية تماما ، بل أنها بقيت متماسكة ، نظرا لرغبتها فى حفظ تراثها وتقاليدها و مجدها ، الذى كانت تتسم به المدنية القديمة ، كما كان الحال فى إيطاليا فى أواخر القرون الوسطى وعصر النهضة . لقد فقدت الارستقراطية أهميتها خلال السنين الاولى للأمبراطورية الرومانية ، بسبب المسيحية التى انتشرت وسادت ، مع أنها كانت فى مبدأ الأمر عقيدة العبيد أو الطبقة العاملة . ويرجع ما انتاب الاسرة من ضعف بسبب المسيحية ، إلى أن هذه العقيدة لم تول الأسرة سوى مكانة ضئيلة ، فعقيدة المسيحية تقوم على العلاقة بين الروح والرب .

ويعزى تفكك الاسرة - فى الأزمنة الحديثة - إلى الثورة الصناعية . وإن كانت قد بدأت فعلا قبل هذا الانقلاب . وكانت بدايتها بتأثير النظريات أو الفلسفات الفردية ، فقد تمسك الشبان بحقهم فى الزواج طبقا لرغباتهم الخاصة ، وليس انصياعاً لأوامر ذويهم . واندثرت عادة إقامة الأبناء المتزوجين فى منازل آبائهم ، كما شاع انفصال الأبناء غير المتزوجين عن بيوت أسراتهم ، ليكسبوا عيشهم ، بمجرد أن يتموا تعليمهم . وقد ظل الأولاد الصغار ،

مصدراً من مصادر الدخل لذويهم، حتى أضناهم الارهاق . ثم جاءت قوانين المصنع فوضعت حداً لهذه الصورة البشعة من الاستغلال . وعند هذه المرحلة أصبحت موانع الحمل معروفة شائعة . وابتدأ النقص فى نسبة المواليد .

وقد ضعف مركز الاسرة فى العصور الحديثة ، على الرغم من تماسكها القوى ، بفضل تدخل الدولة . ولقد كانت الاسرة – فى عهد نظام الاسرة الكبيرة – تتألف من أب متقدم فى السن ، وعدد كبير من الابناء البالغين وزوجاتهم وأطفالهم – وربما أطفال أطفالهم كذلك – يعيشون جميعاً تحت سقف واحد ، ويتعاونون جميعاً كوحدة اقتصادية واحدة ، وهم متحدون جميعاً ضد العالم الخارجى بنفس القوة التى للمواطنين فى أمة عسكرية حديثة . إما فى أيامنا الحاضرة، فقد اقتصرت الاسرة على الاب والام وأطفالهما الصغار . . بل إن الصغار يقضون معظم وقتهم فى المدرسة تنفيذاً للقوانين التى وضعتها الدولة ، حيث يتعلمون ما تعتقد الدولة أنه مفيد لهم لا ما يرغبه أهلوهم . ويعتبر الدين بالنسبة لهذا الوضع استثناء نسبيا . بل إن تدخل الدولة حد من سلطة الاب على ابنه ، فأصبح من حق الدولة أن تحاكم الاب – فى بلد كانجلترا – إذا هو قسا على ابنه أو عامله بنفس الطريقة التى كان الآباء يعتقدون – منذ مائة عام – أنها ضرورية لتربية أولادهم تربية أخلاقية قوية . . وفى الوقت ذاته ، أصبحت الدولة تقدم الرعاية الطبية كما تقدم وجبات الطعام للطفل ، إذا ما كان الوالدان معدمين . وهكذا ، هبطت وظائف الأب إلى أدنى حد ، نظرا لان الدولة قد حلت محله ، بتقدم المدنية .

كان وجود الاب – فى الحالة الفطرية البدائية – ضروريا ، كما هو الحال بين الطيور والحيوانات الشبيهة بالإنسان ، كالقرد . وذلك لاسباب اقتصادية ، ولحماية الصغار وأمهم من قسوة الحياة . وقد أصبحت الوظيفة الاخيرة من اختصاص الدولة منذ وقت بعيد . فالطفل الذى يتوفى والده تكفله الدولة كالطفل الذى يكون أبوه على قيد الحياة .

على أن الأب لايزال يعتبر نافعاً – من الناحية الاقتصادية – بين هؤلاء الذين يعتمدون فقط على ما يكسبونه من أموال ، أى لايوجد لهم دخل آخر خلاف مرتباتهم أو أجورهم . أما فيما يتعلق بالعمال الأجراء ، فهذا النفع آخذ فى النقصان باستمرار ، وذلك نتيجة للشعور الإنسانى السائد فى المجتمع ، والذى ينادى بأن الطفل يجب أن ينال قدرا معيناً من الرعاية والعناية حتى ولو لم يكن له أب يدفع نفقات ذلك . . وفى الطبقات المتوسطة ، نجد أن الأب – فى الوقت الحاضر – له أكبر قدر من الأهمية . فطالما أنه يكسب دخلا طيباً ، فإنه يستطيع أن يمنح أبناءه تلك الميزات ، وذلك بتعليمهم تعليما مناسباً يكلفه غالياً . وهـــذا من شأنه أن يساعدهم على المحافظة على مستواهم الاجتماعى والاقتصادى .. أما إذا مات الأب ، والأطفال صغار ، فالراجح أن مستواهم الاجتماعى ينحدر ويتدهور ، ما لم يكن الأب قد دبر لهم ما يكفل معاشهم .

والأغلبية الساحقة من الآباء ، فى العالم الحديث ، يستغرقهم العمل لدرجة أنهم قلما يشاهدون أطفالهم . . هكذا لا يستطيع الآباء المشاركة فى المهمة

الجليلة الخاصة بالعناية بالأطفال . والواقع أن هذا الواجب تقتسمه الأم مع سلطات التعليم المختصة . وإن لم ينل هذا من حب الأب لأبنائه .

وقد جرت العادة - فى الطبقات العليا المترفة ، وبين أصحاب المهن الحرة - على أن يعهد بالأطفال إلى المربيات عندما يكونون فى سن الطفولة المبكرة . ثم يبعثون بهم بعد ذلك إلى مدرسة داخلية . وتتولى الأم اختيار المربية ، بينما يختار الأب المدرسة ، حتى يحتفظ كل بشعوره بالسلطة على فلذات أكبادهم . وهذا شىء لاتعرفه الطبقات العاملة . فيما يتعلق بالاتصال المباشر بين الطفل وأمه ، فإننا نجد أن هذا - من ناحية المبدأ - يقل بين الطبقات المترفة عنه بين الطبقات العاملة . وعلى هذا ، فعلاقة الأب بأطفاله لاتعدو الإنفاق عليهم ، أو مصاحبتهم فى العطلات فحسب .. غير أن اتصاله الشخصى بهم ليس وثيق الصلة عادة .

وعندما يبلغ الطفل سن المراهقة ، فمن المحتمل جدا أن ينشأ صراع بين الطفل ووالديه . ذلك لأنه يعتبر نفسه - منذ تلك اللحظة - قادرا تماما على العناية بنفسه ، فى حين تمتلىء نفس والديه بالقلق الابوى ، الذى يبدو - فى الغالب - فى مظهر حب السيطرة والقوة . ومن عادة الوالدين أن يعتقدا أن المشاكل الأخلاقية المختلفة التى تنشأ فى دور المراهقة ، داخلة تماما فى اختصاصهم . فى حين أن الآراء التى يبدونها ، لاتلقى قبولا كاملا من الصغار ، بل إنهم يختارون طريقهم الخاص فى الخفاء . وهكذا ، يمكن القول بأن أغلب الأمهات والآباء ليسوا ذوى نفع كبير لأبنائهم .

ولقد درسنا – حتى الآن – النواحى التى تكون الأسرة الحديثة فيها ضعيفة الشأن وآن لنا أن نستعرض النواحى التى مازالت الأسرة فيها قوية .

الأسرة هامة – فى الوقت الحاضر – من ناحية العواطف التى يزود بها الآباء أبناءهم ، والتى يكتسبها الوالدان من جراء أبنائهم . فإن وجود الأبناء يحمل كلا من الآباء والأمهات على الاقدام على تصرفات خالية من الأنانية . خصوصاً فى حالات معينة ، ربما يكون أبرزها وأهمها . . تأمين أسباب العيش للأبناء . ولو لم تكن النظرة الاقتصادية – منذ مائة عام – تميل إلى اعتبار الأطفال ذوى شأن فى الحياة الاقتصادية ، ولكن الواقع أن الحرص على تأمين العيش لأولادهم ، كان من أهم بواعث التملك . وأنا شخصياً أعتقد أن معظم الرجال يمكنهم أن يشهدوا بأنهم يصبحون أكثر ميلا للتملك عندما يرزقون بالأطفال ، عنهم قبل ذلك . وهذا الأمر يصدر لاشعوريا . وأعتقد أن الأسرة كانت – من هذه الناحية – على جانب لا يمكن تقديره من الأهمية البالغة للنمو الاقتصادى للأنانية . ومازالت الأسرة تعتبر عنصراً فعالا بين هؤلاء الذين أمكن أن تتوفر لديهم فرصة لادخار النقود . . ومن المحتمل أن تختلف وجهات أنظار الآباء والأبناء فى هذا الصدد . فقد يفضل الابن أن يحصل على دريهمات عاجلة وشىء من العطف ، على أن يرث ثروة عندما يحين أجل والده . والابن ، علاوة على ذلك ، يلاحظ أن والده يذهب إلى العمل بتأثير العادة . والرغبة فى كسب عيشه هو ، وليس

بدافع المحبة الأبوية . ومن ثم يخال أن أباه يخادعه ، بينما يشعر الأب أن ابنه يستغله .

ومن المستحيل أن نبين بوضوح مدى ما تسهم به الوراثة والبيئة فى نصيب الابن من الحياة . . ولكنى مقتنع بأن تقاليد الأسرة تلعب دوراً على جانب كبير من الأهمية فى تلك الظاهرة التى ينسبها بعض العلماء إلى الوراثة .

ولعل أعظم أهمية للأسرة — فى هذه الأيام التى شاع فيها استعمال موانع الحمل — أنها تصون عادة انجاب الأطفال . وقد يكون من الممكن ، بإحداث بعض التغيير الطفيف فى نظمنا الاقتصادية ، أن توجد عائلات تتكون من أمهات فقط . ولكننى لا أنظر إلى مثل تلك العائلات فى الوقت الحاضر ، نظراً لأنها لا تبعث على العفة الجنسية . وما يهمنا فى كتابنا هذا ، هو الأسرة كنتيجة للزواج المستقر .

ومن المحتمل ، أنه لن يمضى وقت طويل ، قبل أن نستبعد دور الأب تماما ، إلا فيما بين الأغنياء (مع افتراض أن طبقة الأغنياء لن تختفى إزاء انتشار الاشتراكية) . وفى تلك الحالة ستقتسم النساء أطفالهن مع الدولة ، وليس مع أب معين بذاته . سيكون لهن العدد الذى يرغبنه من الأطفال ، ولن يتحمل الآباء أية مسئولية . فإذا ما كانت الأمهات فى حالة تسمح لهن باستقرار الوضع العائلى ، فإنه سيصبح من العسير تحديد معنى الأبوة . على أن هذا كفيل بأن يحدث انقلاباً بعيد الأثر فى سيكولوجية الرجال ونشاطهم .

ولا أستطيع الإفصاح عما إذا كان أثر ذلك على الرجال سيكون حسناً أو سيئاً . إن ذلك من شأنه أن ينتزع من حياتهم العاطفة الوحيدة المساوية فى الأهمية للحب الجنسى ، بل إنها قد تجعل الحب الجنسى فى ذاته شيئاً تافهاً . كما أنها قد توهن الطموح وحب الكفاح فى الحياة ، فى نفس الرجل.

وعلى هذا ، فإن الأسرة القائمة على النظام الأبوى مازالت هامة على الرغم من أنه من المتعذر التنبؤ بمدى ما يمكن أن تستمر عليه الحال كذلك .

●

الفصل الثالث عشر

الأسرة في علم النفس الفردي

أود أن أبحث في هذا الفصل ، كيف تتأثر شخصية الفرد بروابط الأسرة . ولهذا الموضوع أطراف ثلاثة : فهناك مدى التأثير على الأطفال ، ثم التأثير على الأم ، وأخيراً مدى التأثير على الأب . ومما لا شك فيه ، أنه من الصعب التفرقة بين هذه الأركان الثلاثة ، نظرا لأن الأسرة وحدة مقفلة محكمة ، وأى شيء يؤثر على الآباء ، يؤثر أيضاً فى نفوذهم على الأطفال . وأياما كان الأمر ، فانني مدأحاول أن أقسم المناقشة بين هذه الموضوعات الثلاثة . ومن الطبيعى أن نبدأ بالأطفال ، مادام أن كل شخص كان طفلا فى الأسرة قبل أن يصبح أباً .

وإذا كان لنا أن نعتقد فى صحة ما ذهب إليه « فرويد » ، فإن عواطف الطفل الصغير نحو أعضاء أسرته الآخرين لها طابع معين . فالطفل يكره أباه الذى يعتبره منافساً له فى حب أمه . وهو شعور أساسه جنسى ، لأن الطفل يحس تجاه والدته بعواطف تنظر إليها التقاليد الأخلاقية بفزع . وهو يكره

إخوته وأخواته لأنهم يستنفدون جزءا من المحبة الأبوية التى يريد أن يستأثر بها وحده . وإذا ما تقدمت به السن ، فإن هـذه العواطف سرعان ما تنقلب إلى عكسها ، بل إلى أنواع مزعجة ، تتباين وتتأرجح بين زيادة الحساسية الجنسية . فى أحسن الحالات ، والجنون فى أسوأ الحالات . . وقد سبب مذهب « فريد » جزعاً ، لا لما كشف عنه من صور للكراهية فى الطفولة ، وإنما لما كشف عنه من أمور جنسية .

ولكن ، علينا ـ على أية حال ـ أن ننظر بلا تحيز إلى آراء « فرويد » عن العواطف لدى الأطفال لنتبين الحقيقة من الزيف . وأعترف كبداية ، بأن قدرا لا بأس به من الخبرة بشئون الأطفال الصغار ، قد قادنى ـ فى السنوات الأخيرة ـ إلى الاعتقاد بأن نظريات «فرويد» على نصيب كبير من الصحة، وإن كنت لا أزال أرى أنها تمثل جانباً واحدا من الحقيقة . ويمكن للآباء ، بشىء من حسن الادراك ، أن يعالجوا الأمر .

* * *

ولنبدأ بعقدة « أوديب » . . فإن الحساسية الجنسية فى الطفولة أقوى بلا مراء مما كان يعتقد أى شخص قبل « فرويد » أى أن تنمية الحساسية الجنسية أيسر فى بواكير الطفولة منها فى أية مرحلة أخرى . . وليس من الصعب على أم غير عاقلة أن تركز مشاعر طفلها وعواطفه على شخصها ومن المحتمل أن تحدث ـ إذ ذاك ـ النتائج السيئة التى أشار إليها « فرويد » .

وأيا ما كان الأمر ، فإن احتمال الضرر يقل إذا ما كانت حياة الام الجنسية متكاملة ، لانها فى هذه الحالة لن تنظر إلى طفلها إلا بنوع من الارتواء العاطفى . والعواطف الابوية تهدف ، فى صورتها الخالصة ، إلى العناية بالصغار ، لا إلى مطالبتهم بالمحبة . وإذا ما كانت المرأة موفقة فى حياتها الجنسية فإنها ستمتنع بالكلية عن اجتذاب طفلها ، بما يشبه القسر ، على الاستجابة العاطفية لها . كذلك يجب أن تمتلك الأم قدرا ملحوظاً من القدرة على ضبط النفس فى أوقات الشدة والشقاء بأن تتجنب مطالبة أطفالها بالشىء الكثير . وليس من الصعب الوصول إلى درجة معينة من ضبط النفس ، ولكن الحاجة إليها فى الأزمان الغابرة لم تكن قد اتضحت بعد . وكانت الام تعتبر طبيعية فى سلوكها ، إذا ما أضفت فيضا من الحنان على أطفالها . وهكذا تجد عواطف الاطفال اللاجنسية مخرجاً طبيعياً بريئاً ، فى اللعب مع غيرهم من الاطفال . وفى هذه الصورة يكون هذا النشاط جزءا من اللعب . وككل أنواع اللعب ، فإنها تمهد لنشاط البالغين . ويحتاج الطفل ، بعد سن الثالثة والرابعة ، إلى استكمال نموه العاطفى ، وإلى مصاحبة أطفال آخرين — عدا إخوته — من الجنسين .

على أن الامهات لسن – فى الغالب – المصدر لذى يبعث فى الطفل الصغير أنواعا غير مرغوب فيها من المحبة . فان الخادمات والممرضات وكذلك المدرسات فى السنوات اللاحقة ، يعتبرن على جانب كبير من

الخطورة . وقد تكون خطورتهن أكبر وأشد من خطورة الأمهات ، نظرا لانهن يعتبرن ـ عموما ـ محرومات ، يعانين كبتا جنسيا .

والغيرة بين الاشقاء والشقيقات أمر شائع فى العائلات ، وتعتبر سببا فى بعض الاحيان من أسباب الانتحار إذا ما تقدمت بهم السن ، مثلها مثل الجنون ، وغير ذلك من الامراض والمتاعب العصبية . على أن تفاديها ليس بالامر العسير ، إذا عنى الآباء — وغيرهم من المشرفين على تربية الصغار — بمراقبة أو ملاحظة سلوكهم الشخصى وسلوك الاطفال معا . فيجب ألا تكون هنالك محاباة ، كما يجب مراعاة جانب العدالة والمساواة المطلقة فيما يتعلق بالالعاب والمعاملات . ونتطرق من هذا إلى أمور معينة ينبغى توافرها إذا ما أريد أن يكون التأثير السيكولوجى لحياة الاسرة على الاطفال تأثيرا طيبا . فيجب أن لا يكون الوالدان ـ وعلى الاخص الام ـ غير سعيدين فى حياتهما الجنسية . . كما يجب أن يتجنب كل من الوالدين مع اطفالهم ، تلك العلاقة التى تثير استجابة غير مرغوب فيها فى دور الطفولة . . وبعد سن الثالثة أو الرابعة ، يجب ألا يكون المنزل هو البيئة الوحيدة بالنسبة للطفل ، بل يجب أن يمضى شطرا معقولا كل يوم مع أقرانه الاطفال.. وإذا ما استوفيت هذه الشروط، فاننى أعتقد أن الآثار السيئة التى يخشاها «فرويد» قد تصبح بعيدة الاحتمال .

كذلك تساهم المحبة الابوية ، إذا كانت من النوع السليم ، فى نمو الطفل وترعرعه . ويتعرض الاطفال الذين لاتشعر أمهم نحوهم بعاطفة دافقة

لأن يشبوا نحافا على درجة كبيرة من الضعف ، معرضين بنوع خاص للاصابة بنوع من الجنون يسمى « كيلبيتومانيا » . إن محبة الوالدين تجعل الابناء يشعرون بالامن فى هذا العالم المليء بالاخطار ، وتمنحهم الشجاعة على اختيار واكتشاف بيئتهم المحيطة بهم . ومن الضرورى لسلامة حياة الطفل العقلية أن يشعر بأنه موضع المحبة القلبية الدافئة والحنان والود الخالصين فى بيئته ، لانه يعلم بغريزته أنه عاجز عن مساعدة نفسه ، وأنه بحاجة إلى الحماية التى توفرها المحبة والحنان وحدهما . وهذا ما لاسبيل إليه إلا عن طريق محبة والديه وعطفهما وحنانهما .

وهناك خدمة أخرى يمكن للوالد العاقل والام العاقلة أن يؤدياها لاطفالهما .. تلك هى أن يقدما إليهم الحقائق والوقائع التى تدور حول الجنس والابوة ، ويعرفاهم بها ، وهذه أحسن طريقة لتعلم هذه المسائل إذ أنها تبصرهم بها فى أنبل صورها ، وتجنبهم استطلاعها من مصادر قد تشوه قيمتها ، وتبديها مبتذلة .

* * *

ولكى نبين ما إذا كانت حياة الاسرة فى جملتها سليمة أو غير سليمة ، يجب أن ندرس العناصر العملية فى الموضوع . ويبدو أن هناك عاملين :

الاول : الاسرة التى ينتسب فيها الابناء إلى أمهاتهم (النظام الامي)

الثانى : النظم والمؤسسات العامة ، مثل ملاجىء الايتام.

ولكى يمكن اعتبار أحد هذين العنصرين هو القاعدة ، فإن الامر يحتاج إلى احداث تغيرات اقتصادية ملموسة . على أننا سنفترض جدلا أنه قد تم تنفيذ هذين العاملين ، حتى يتسنى لنا أن ندرس نتائجهما على سيكولوجية الاطفال . ولنبدأ بالاسرة فى النظام الامى .

يفترض المرء فى هذا النظام أن الاطفال يعرفون واحدا فقط من والديهم ، كما يفترض أن المرأة هى التى تسعى إلى انجاب الطفل إذا مارغبت فيه . . وأنها لاتلتزم بأن يكون أولادها جميعا من أب واحد . فإذا افترضنا وجود استقرار مالى للأسرة ، فهل يعانى الاطفال كثيرا من مثل هذا النظام ؟

الذى أعلمه هو أن الاطفال الذين يتوفى عنهم آباؤهم فى حداثتهم ، لايصبحون أسوأ من غيرهم ، ومما لاشك فيه أن وجود الاب المثالى أفضل من عدم وجوده ، ولكن الواقع أن آباء كثيرين بعيدون عن أن يكونوا آباء مثاليين ، إلى درجة تجعل فى عدم وجودهم فائدة محققة للأطفال .

وما يقال الآن ، يعتمد على افتراض وجود نظام مستقر ، متعارف عليه يجبر الاطفال على احترام أحكامه . . وهذا أكثر إيلاما وقسوة للطفل من مجرد شعوره بأنه غريب زائد عن الحاجة ، وغير مرغوب فيه . فالطفل الذى تعود على وجود والدين ، وأصبح مرتبطا بكل منهما ، نجد أن التفرقة بينهما بالطلاق ، هادمة ومدمرة لشعوره العام بالطمأنينة . ومن المحتمل فى مثل هذه الظروف أن يصيبه كثير من الامراض العصبية . وإذا ماتعلق الطفل بكل من والديه ، فإن مسئولية خطيرة تقع على عاتقهما ، إذا ما قر قرارهما على

الانفصال والطلاق . ولهذا السبب ، فإننى أعتقد أن المجتمع الذى لا يوجد فيه مكان للآباء قد يكون أفضل للأطفال من مجتمع يكثر فيه الطلاق ، على الرغم من اعتباره إجراء استثنائيا .

ولا أرى أنه يمكن أن يقال الكثير بصدد اقتراح « أفلاطون » ، الخاص بفصل الاطفال عن أمهاتهم وعن آبائهم معا . إذ أننى أعتقد أن العاطفة الابوية ضرورية لنمو الطفل . . وقد يكون من المحتمل الاكتفاء بالحصول على هذه المحبة أو العاطفة من واحد فقط من الوالدين ، ولكن من العسير تصور حرمانهم منها من كليهما . . والمسألة التى تعنينا الآن – من وجهة نظر الاخلاق والجنس – هى مدى فائدة الاب . . وبينما نجد أنه من الصعب جدا بالنسبة لهذا الامر أن نجزم بشىء معين ، فيبدو ، فى بعض الحالات التى يحالفها الحظ ، أن للأب بعض فوائد محدودة . فى حين نجد فى حالات أخرى – جانبها التوفيق – أن ضرره أكثر من نفعه ، وذلك نتيجة لاستبداده وكثرة مشاجراته . وعلى هذا ، فمركز الآباء من ناحية سيكولوجية الاطفال ليس على قدر من المتانة والصلابة .

ومن الصعب جدا تقدير أهمية الاسرة – فى وضعها الحاضر – من ناحية سيكولوجية الامهات – غير أنه ينشأ لدى الام عادة خلال الحمل والرضاعة ميل غريزى معين ، فترغب فى أن يضفى الرجل حمايته عليها . وهذا الشعور موروث عن فصائل الحيوانات الشبيهة بالإنسان . ومن المحتمل أن المرأة فى هذا العصر ، الذى يتميز بالتزاحم والتدافع بالمناكب ، تجد نفسها مسوقة إلى

أن تستغنى عن تلك الحماية وتميل - إلى حد ما - إلى النزوع إلى التمرد ، وإلى أن توفر لنفسها نوعا من الطمأنينة والضمان . وهذه المشاعر تنبعث عن الغريزة غير أنها تأخذ فى التلاشى والخفوت بشكل كبير ، حتى لتختفى فى بعض الحالات ، إذا ما منحت الدولة العناية الكافية للأمهات الحوامل واللائى يرضعن أطفالهن ، ومدت حمايتها إلى الأطفال الصغار . وأعتقد أنه قد يكون من أكبر الأضرار التى تصيب النساء من جراء إلغاء مكانة الأب فى الأسرة اضمحلال علاقات المودة والجدية مع الجنس الآخر من الذكور ولقد خلق بنو الإنسان بطريقة تجعل كل جنس يتعلم كثيرا من الجنس الآخر . ولكن العلاقات الجنسية المجردة ، حتى عندما تكون عاطفية لا تكفى لهذه الدروس . . فهذا التعاون ، وهذه الزمالة ، خلال السنوات الطوال التى يعيشها الزوجان ، تثمر علاقة أكثر أهمية وأكبر قدرا بالنسبة لكل من الطرفين، من أية علاقة أخرى قد تنشأ ، إذا لم يكن للرجال أى قدر من المسئولية إزاء أطفالهم . ولا أعتقد أن الامهات اللائى يعشن فى جو نسائى بحت ، أو اللائى يكن على صلات عابرة فقط بالرجال ، يكن - باستثناء حالات نادرة - صالحات من الناحية العاطفية لتربية أطفالهن . مثل أولئك السيدات السعيدات فى زواجهن واللائى يتعاون فى كل مرحلة مع أزواجهن . وعلى أية حال ، فإنه يتعين على المرء أن يدخل فى اعتباره عوامل أخرى خلاف ذلك . فشقاء المرأة فى زواجها يجعل من الصعب جداً أن يتوفر لديها الانفعال

العاطفى السليم اللازم لمعاملتها. ومما لاشك فيه ـ وفى مثل تلك الحالات ـ أنها تكون أما أفضل لو انفصلت عن زوجها ووالد أولادها .

وهكذا نجدنا مسوقين إلى نتيجة بديهية ، وهى أن الزيجات السعيدة أمر جميل ، بينما الزيجات غير الموفقة أمر سيء.

والسؤال الاكثر أهمية فى علاقات « الاسرة فى علم النفس الفردى » هو مدى التأثير على الاب . لقد كررنا ذلك فى مناسبات عديدة ، عندما بينا معنى الابوة ومدى الاستجابة لعواطفها . وقد رأينا الدور الذى لعبته الابوة فى التاريخ القديم، فيما يتعلق بنشأة الاسرة التى تقوم على نظام الابوة وإخضاع النساء . ويمكننا أن نعرف من ذلك ، كيف أن الشعور الابوى عاطفة قوية . . بيد أنه ، لاسباب ليس من السهل حصرها ، ليس قوياً فى المجتمعات التى ضربت بسهم وافر فى مضمار الحضارة المدنية بنفس الدرجة التى يكون عليها فى المجتمعات الاخرى . . على أن الاغلبية العظمى من الرجال . لا تزال ـ على كل حال ـ تشعر بالابوة . . وهذا السبب بعينه هو الذى يدفع الرجال إلى الزواج ، أكثر مما تدفعهم أمور الجنس ، نظرا لانه ليس من الصعب حصولهم على الارتواء الجنسى بدون زواج . وهناك رأى يوحى بأن الرغبة فى الاطفال تكون أشد عند النساء عنها عند الرجال ، ولكن رأيى الخاص، عكس ذلك تماما . فى عدد كبير جداً من الزيجات الحديثة ، يعتبر الاطفال عبئا يقع على عاتق المرأة ارضاء لرغبات الرجل . فإن

المرأة تضطر إلى تحمل الالم ، والتعرض لزوال مسحة جمالها ، حتى يمكنها أن تأتى للعالم بطفل ، فى الوقت الذى لايتعرض فيه الرجل لشىء من هذا . فليس يدعوه إلى أن يحدد عدد أفراد أسرته ، سوى اعتبارات اقتصادية مالية بوجه عام .

* * *

ترى ، هل يقبل الرجال أن يكون لهم أطفال إذا لم يكن فى استطاعتهم التمتع بالحقوق التى تخولها لهم الأبوة فى الوقت الحاضر ؟

قد يقول بعض الناس إنه إذا لم يترتب على انجابهم للأطفال مسئولية ، فإنهم يوافقون بلا عناء على أن يكون لهم أطفال . وأنا لا أصدق ذلك . فالرجل الذى يرغب فى أن يكون له طفل ، يجدر به أن يتحمل المسئوليات التى تترتب على ذلك . وفى هذه الأيام التى شاع فيها استعمال موانع الحمل ، لايرغب الرجل فى أن يكون طفله مجرد صدفة عابرة أثناء بحثه عن اللذة .

ومهما يكن الوضع القانونى لذلك ، فان مولد الطفل يكون عادة داعيا لأن يعيش الرجل والمرأة فى اتحاد دائم .

وقد قيل فى الفصل الأخير شىء عن تأثير مثل هـــــذا النظام على سيكولوجية الذكور . وأعتقد أنه من الممكن أن تقل جدية العلاقات بين الرجال والنساء تدريجيا ، بجعل هذه العلاقة مجرد متعة ، وليست فقط اتحادا

وثيقاً للعقل والقلب والجسد . . واعتقادى الخاص — الذى أصرح به بشىء من التردد — هو أن استبعاد الأبوة كعلاقة اجتماعية مشروعة ، قد يؤدى إلى جعل حياة الرجل العاطفية تافهة وضئيلة ، تسبب فى النهاية نموا تدريجيا لعبء ثقيل ويأس يذوى خلاله التناسل ، ويترك معه أمر الجنس البشرى وبقاؤه مهملا !

●

الفصل الرابع عشر

الأسـرة والدولة

على الرغم من أن الأسرة لها أصلها البيولوجى ، فانها تعتبر فى المجتمعات المتمدينة نتيجة للتعاقد القانونى . فالقانون ينظم الزواج ، كما يبين حقوق الآباء والأمهات على أبنائهم . وحيثما لا يقوم الزواج ، لا تكون للأب حقوق ، ويصبح الطفل منتمياً إلى أمه بالكلية . وعلى الرغم من أن المقصود بالقوانين هو حفظ كيان الأسرة ، فإنها قد تدخلت فى العصور الحديثة بازدياد ملموس فى العلاقة بين الوالدين وبين أطفالهما ، وأصبحت بالتدريج — ورغم أنف واضعى القوانين أنفسهم ودون قصدهم — من العوامل الفعالة فى انهيار النظام العائلى .

حدث هذا نتيجة للحقيقة المتعارف عليها ، من أن الأبوين السيئين لا يمكن الاطمئنان إليهما فى العناية بأطفالهما بالقدر الكافى الذى يرتاح إليه الشعور العام فى المجتمع ويعتبره لازما ضروريا . ولا ينطبق هذا على الأبوين السيئين فقط ، وانما على الأبوين الفقيرين أيضا . فلزم من هذا أن تتدخل

الدولة لتحمى الأطفال من الهلاك ، وتدفع عنهم شر الاندفاع نحو الهوة السحيقة . .

وقد قوبلت فكرة التدخل لحماية الصغار من العمل فى المصانع . فى مستهل القرن التاسع عشر ، بمعارضة شديدة ، نظراً لما كان فى ذلك من إضعاف للسلطة الأبوية . ولكن الحاسة الأخلاقية لدى المجتمع ثارت إزاء هذا الظلم الصارخ الذى كان الصغار يلقونه فى المصانع . . وأعقب ذلك خطوة أكثر أهمية ، وهى فرض التعليم الالزامى ، إذ أنه يعتبر تداخلا جديا فى حقوق الآباء . فعلى الأطفال أن يتعلموا — عددا كبيرا من ساعات الأسبوع - بعيدا عن بيوتهم ، العلوم التى ترى الدولة وجوب تدريسها لهم . . فى حين يرى الآباء أن الموضوع من الناحية القانونية لا يخص الدولة فى شىء . وقد امتدت رقابة الدولة - عن طريق المدارس - إلى حياة التلاميذ ، فتولت الدولة العناية بصحتهم ، وبنموهم العقلى ، وبتغذيتهم . بل ذهب تدخل الدولة إلى درجة معاقبة الوالدين إذا ظهرت على طفلهما آثار تنم عن أنهما يقسوان فى معاملته .

ولقد كان للآباء - فيما مضى - الحق فى الاستيلاء على ما يكسبه أطفالهم من أجر عن عملهم ، ما دام الأطفال لا يزالون صغارا . . ومن الحقوق القليلة الباقية للآباء - فى الطبقة العاملة - تلقين أبنائهم عقيدتهم الدينية ، وإن كان هذا الحق انتزع من الآباء فى كثير من البلدان .

وهكذا قامت الدولة بوظيفة الأب ، لا بوظيفة الأم . فحلت محله

وأصبحت تؤدى للطفل نفس الخدمات التى كان الأب يؤديها . على أن هذه الحال لم تحدث فى الطبقات العليا والمتوسطة إلا فى أضيق الحدود . وبالتالى فقد بقى الأب أكثر أهمية فى هاتين الطبقتين منه فى الطبقة العاملة . وبقيت الأسرة أكثر ثباتاً واستقراراً بين هاتين الطبقتين عنها لدى الطبقة الثالثة . وفى البلاد التى تطبق الاشتراكية — بصورة جدية — كما فى روسيا السوفييتية تتلاشى هذه التفرقة . ولكن من الصعب أن نتصور أن يحدث هذا فى بلد كانجلترا ، مهما تتفشى فيه الاشتراكية ، لأن الأمر يتصل بتقاليد عريقة متغلغلة .

ويميل الاتجاه فى الوقت الحاضر — فى جميع البلدان — إلى ازدياد تدخل الدولة المستمر فى سلطات الاب ووظائفه وواجباته ، بالنسبة إلى الطبقة العاملة .. بدون أى تدخل مماثل فى الطبقات الاخرى ، اللهم إلا فى الاتحاد السوفييتى ، ومن الممكن أن نفترض — والحال كذلك — أن الاتجاه الإنسانى ازاء الاطفال ، وهو الذى كان سبباً فى تدخل الدولة فى الماضى ، سيزداد ويستمر ، وسيؤدى إلى الامعان فى التدخل . ولعل ما تثبته الوقائع من أن نسبة كبيرة من الاطفال فى الاحياء الفقيرة بالمدن يعانون من نقص التغذية وضعف الرعاية الصحية ، مثل من الامثلة التى تبرر تدخل الدولة ، لأن الآباء لا يستطيعون أن يوفروا لأبنائهم التغذية والرعاية اللازمتين ، مهما تكن رغبتهم فى ذلك ، لضآلة مواردهم . ومن المأمول أن تمتد وظائف الدولة ، فيما يتعلق برعاية أطفال الطبقة العاملة ، أكثر مما نتصور ، فى المستقبل القريب . .

مع ما فى ذلك من تضاؤل وظائف الأب وواجباته . ان الغرض البيولوجى للأب ، هو حماية الاطفال خلال سنواتهم التى يكونون فيها فى حاجة إلى الرعاية . فإذا ما أخذت الدولة عنه هذه الوظيفة فإنه يفقد سبب وجوده . ومن ثم فان لنا فى المجتمعات الرأسمالية أن نتوقع نشوب انقسام متزايد للمجتمع إلى شطرين : الأغنياء الذين يحتفظون للأسرة بطابعها القديم ، والفقراء الذين يتطلعون إلى الدولة فى لهفة متزايدة للقيام بالوظائف الاقتصادية التى كان يضطلع بها الاب بصفة تقليدية .

وهناك قوة كبيرة أخرى ، تعمل على استبعاد الاب . هذه القوة تتمثل فى رغبة النساء فى الاستقلال الاقتصادى . وغالبا ما تكون المتحمسات لهذا المبدأ من العوانس . غير أن هذه الحالة غالبا ما تكون مؤقتة . فمشكلات السيدات المتزوجات تعتبر ـ فى الوقت الحاضر ـ أخطر من مثيلاتها لدى السيدات غير المتزوجات . فالمدرسة التى تتزوج تعامل وكأنها ارتكبت إثما . كما تطالب كثير من النساء المشتغلات بالا يكن متزوجات . وليس ذلك لان النساء المتزوجات لا يصلحن لاداء أى عمل ، ولا حتى لأن هناك قيودا قانونية تحول دون قيامهن بذلك العمل . وإنما الباعث على عدم استخدام السيدات المتزوجات لشغل الوظائف المختلفة ، يرجع إلى رغبة الذكور فى فرض سيطرتهم الاقتصادية عليهن ودوامها . غير أنه ليس من المنتظر أن تخضع النساء لهذه السطوة إلى الابد لاسيما وانهن يؤلفن قوة انتخابية هائلة .

وهناك طريقان مختلفان للنساء كى يحصلن على الاستقلال الاقتصادى.
الاول: أن يحتفظن بالعمل الذى كن يؤدينه قبل الزواج . وهذا يتطلب أن يعهدن بأطفالهن إلى آخرين . وهذا يؤدى بدوره إلى زيادة عدد دور الحضانة ومدارس اعداد المربيات وتكون النتيجة الحتمية المنطقية لكل ذلك هى استبعاد دور الام كما حدث مع الاب ، فى حياة الطفل . . أما الطريق الآخر فهو : أن تمنح الدولة للنساء أجورا ، تقصرها على اللاتى ينجبن أطفالا منهن ، على أن يكرسن أنفسهن للعناية بأطفالهن . ولهذه الطريقة ميزة من حيث إنها تمكن النساء من العناية بأطفالهن بأنفسهن ، دون أن يفقدن قيمتهن باعتمادهن على رجل واحد . وهنا يجب أن نلقى بالا إلى مبرر كبير الاهمية ، وهو أنه نظرا لان العمل الذى يقمن به – وهو إنجاب الاطفال – كان مجرد نتيجة للاتصال الجنسى من قبل ، أصبح يعود بالنفع والخير على الدولة أكثر منه على الوالدين ، فمن الواجب أن تقوم الدولة بتمويله ودفع نفقاته، بدلا من إلقاء عبء ثقيل على عاتق الاب والام . . ونظرا لان الوعى لدى طبقة النساء العاملات فى ازدياد ، فمن المحتمل أن هذا المبدأ يغدو موضع اعتراف من الدولة ، وسينص عليه القانون صراحة . وإذا تم هذا ، فإن سيطرة الرجل الاقتصادية فى الطبقة العاملة ستسير إلى زوال . ومن المحتمل أن تتوقف العائلة عن أن تصبح مكونة من والدين اثنين ، نظرا لان الاب لن يعد ذا أهمية ولا قيمة .

ولكننا نجد ، فى هذه الايام ، أن الكثيرات من السيدات يجزعن

لمجرد فكرة أنهن قد يضطررن إلى البقاء فى البيوت ، ويفضلن على ذلك الرجوع إلى أعمالهن التى كن يمارسنها قبل الزواج ، حتى ولو كان من هذه الاعمال الاشتغال فى دور الحضانة كمربيات . فإن تلك المهنة ستكون حرفة جديدة يحترفنها ويتخصصن فيها لقاء أجر معلوم ، وسيشعرن بنفس السعادة التى كن يشعرن بها فيما لو مكثن فى بيوتهن لتربية أطفالهن .. غير أنهن يفضلن الخروج والاشتغال خارج نطاق المنزل .

* * *

وعلى أية حال ، فهذا مجرد رأى شخصى . ولا أستطيع الادعاء بأنى أستند فى كل ذلك إلى أسس نهائية . ولكن إذا كان هناك أى احتمال للصدق فى كل ماعرضناه ، من أن نمو الحركة النسائية وتقدمها بين السيدات المتزوجات ـ فى نطاق المجتمع الرأسمالى ـ من شأنه أن يؤدى فى المستقبل غير البعيد إلى إقصاء أحد الوالدين ـ ان لم يكن كليهما ، فى الطبقة العاملة عن العناية بشؤون الصغار .

إن فكرة استبدال الاب بالدولة ـ كما أخذ بها فى الغرب ـ تعتبر تقدما عظيما فى مجموعه ، فقد كان من شأنها تحسين المستوى الصحى للمجتمع بشكل واسع ، ورفع المستوى العام للتعليم ، كما أنها قللت من القسوة فى معاملة الاطفال . ومن المتوقع أنها قد تؤدى إلى رفع المستوى العام للصحة البدنية والعقلية .

غير أن هناك أضرارا بالغة الخطورة فى إحلال الدولة محل الأب . فالمعروف أساسا أن الآباء يهيمون بأولادهم حبا ، ولا يعتبرونهم مجرد مادة للمشروعات السياسية ، كما تفعل الدولة . ومن ثم فإن تكفل الدولة بهم ، يحرم الأطفال من هذا الحب . لان الاشخاص الذين يكونون على اتصال دائم بالاطفال - كالمدرسين فى المدارس - معرضون لان ينظروا إلى الآدميين ، لا كغاية فى ذاتهم ، وإنما كنوع من النبات . و بالاضافة إلى ذلك ، فإن الاطفال الذين يقعون تحت رحمة هذه النظم الرسمية يكونون كلهم سواء ، ومعنى هذا أن كثيرا من هؤلاء الذين تكون لديهم ملكات واستعدادات فطرية هائلة ، سيجدون من الاهمال ما قد يؤدى إلى انهيار روحهم المعنوية .

وما دام العالم لايزال - فوق كل شىء - يضم دولا يغلب عليها الطابع العسكرى ، فإن احلال الدولة محل الوالدين فى التعليم ، معناه تضخيم مايسمى « بالوطنية المتطرفة » ، وذلك للاستعداد لحشد المواطنين لاية حرب تشنها الدولة.أما إذا أنشئت حكومة عالمية ، فى استطاعتها أن تعمل على احلال القانون محل القوة فى المنازعات بين الامم ، فإن الموقف سيختلف تماما . ويجب ، فى هذه الحالة ، أن يلقن الصغار فى كل مكان - مبدأ الولاء - للحكومة الدولية العليا . وفى هذه الحالة، سيزول خطر الحرب تماما ، وتكون رقابة الحكومة الدولية العليا على التعليم كصمام أمن ايجابى ضد الحرب .

والنتيجة أن استبدال الدولة بالاب، قد يكون فيه غنم للحضارة والمدنية إذا كانت الحكومة عالمية ، ولكن ما دامت الحكومات محلية عسكرية ، فإنه يمثل احتمالا متزايدا لتعرض المدنية للحرب .

الفصل الخامس عشر

الطلاق

أجيز الطلاق كنظام ، فى أغلب العصور وفى معظم الدول ، لأسباب معينة ، لم يكن بينها أبدا التحلل من نظام الأسرة التى تقوم على الزوجة الواحدة ، فهو قد أجيز لتجنب الأضرار التى يصبح معها استمرار الزواج متعذرا ، وقد اختلفت قوانين الطلاق فى مختلف البلاد وعلى مر السنين . .

ويلقى الطلاق — فى بعض الدول — معارضة شديدة ، بينما يلقى فى دول أخرى تحبيذا . وهو فى بعض البلاد ميسور لكل من الزوجين ، فى حين أنه فى بلاد أخرى حق لأحدهما دون الآخر . . ومن الاشياء العجيبة بالنسبة للطلاق ، هذا التضارب الذى نشأ بين أحكام القانون الوضعى والعرف . فليس من الضرورى أن يترتب على القوانين الميسرة للزواج ، ارتفاع فى نسبة الطلاق . ولقد كان الطلاق فى الصين ، قبل الثورة الاخيرة ، غير معروف بالمرة ، فكان ينظر إليه على أنه شىء غير جدير بالاحترام . أما فى السويد ، فالقوانين تسمح بالطلاق باتفاق الطرفين ، وهو أساس غير معترف به فى أية ولاية من الولايات المتحدة الامريكية .

وأعتقد أن التمييز بين العرف والقانون هام ، لانه بينما أؤيد فكرة صدور قانون مناسب فى هذا الموضوع نجد هناك أسبابا قوية تبرر تعارض العرف مع أحكام القانون ، إلا فى الحالات المتطرفة بعض الشىء . أميل الى هذا الاتجاه لانني أرى أن الزواج ليس مجرد علاقة جنسية ، ولكنه أولا وقبل كل شيء ، تعهد بالتعاون المشترك فى سبيل إنجاب وتربية الاطفال .

فلنستعرض هنا بعض الظروف التى قد تجعل الطلاق ضرورة لازمة :

لنفرض أن واحدا من الزوجين ـ الزوج أو الزوجة ـ أصبح معتوها بعد الزواج . . ففى مثل هذه الحال ، لا يستحب أن ينجب أطفالا . وهنا يكون من الأفضل ، التفريق بين الزوجين ، لاسيما وأن الطرف السليم قد لا يسمح للمعتوه ـ فى الغالب ـ بممارسة أية علاقة جنسية ، تترتب عليها آثار قانونية . . وهذا يعتبر قسوة مكروهة ، لاتخدم أى مبدأ عام . والوضع هنا مؤلم للطرف السليم فى الزواج . فهو قد يتمسك بأهداب الفضيلة ويكبح جماح عواطفه ، وهذا هو مايتوقعه القانون وحسن الآداب . . وقد يقدم على إنشاء علاقات سرية ، دون أن يترتب عليها إنجاب للأطفال . . وأخيرا ، فقد يقع فى حمأة الرذيلة المكشوفة ، وقد ينجب أطفالا فى هذه الحالة وقد لا ينجب . وفى الحالة الاولى ، حالة التمسك بالفضيلة ، قد يؤدى الامتناع التام عن ممارسة الاتصال الجنسى إلى ذبول الشخص ، وإلى تعرضه للاضطرابات العصبية . . وقد يقود إلى الشذوذ الجنسى لأتفه الاسباب ، وقد تقود هذه الحالة الرجل إلى أن يصبح وحشاً

قسيا ، إذا كان لديه قبل الزوج اعتقاد بأن الاتصال الجنسى خارج إطار الزواج إثم يعاقب عليه ، فمن المحتمل أنه عند محاولته الحصول على مثل هذا الاتصال الجنسى أن يضرب بكافة المعتقدات والقيود عرض الحائط .

أما الحالة الثانية ، وهى إقدام الطرف السليم على علاقات جنسية تحوطها السرية ، ولا ينتج عنها أطفال ، فإن مجرد التكتم وخوف الفضيحة يجعلان لها أسوأ الأثر على الشخص . فضلا عن مجافاتها للأوضاع القانونية والاجتماعية . . وهذه الحالة أسوء ضررا من الحالة الثالثة ، وهى الانغماس فى الرذيلة المكشوفة ، وإن كانت ممارسة هذه الحالة مستحيلة فى بعض الظروف . لاعتبارات اقتصادية . فالطبيب أو المحامي — مثلا — الذى يحاول أن ينغمس فى حمأة الرذيلة المكشوفة يتعرض لأن يفقد عملاءه . . فضلا عن نظرة المجتمع إليه .

ومن الظروف التى تجعل من استمرار الزواج أمرا غير مرغوب فيه ، الزنا . . على أننى لا أرى هذا سبباً من أسباب الطلاق . فليس فى وسع من لم يؤتوا قدرا كبيرا من المناعة الاخلاقية أن يسيروا فى الدنيا بدون أن يميلوا إلى شىء من الانحراف ، من وقت لآخر . غير أن مثل تلك الدوافع لا تعنى بحال من الأحوال ، أن الزواج لا يخدم أغراضه . مثال ذلك أن رجلا انتدب ليسافر فى مهمة تتعلق بعمله لبضعة أشهر ، بعيدا عن أهله . . مثل هذا الشخص — اذا كان متمتعا بصحة جيدة وبنيان قوى سليم — قد يجد من العسير أن يكبح جماح شهواته طوال هذه الفترة . مهما يبلغ حبه

لزوجته. ونفس الحالة تنطبق على الزوجة،إذا لم تكن مقتنعة تماما بالمبادى، الأخلاقية ، متمسكة بها . وفى رأيى الخاص ، أن الوفاء فى هذه الحالة، يجب ألا يكون فيه أى مساس أو قيد بالسعادة فيما بعد . . وبالتالى ، فإن الزنا — فى رأيى — لا يعتبر سبباً وجيها للطلاق ، إلا حيث يترتب عليه تفضيل تام لشخص آخر خلاف الزوج أو الزوجة .

وإننى أفترض — فى إبدائى لهذا الرأى — أن الاتصال الجنسى لن يترتب عليه إنجاب للأطفال . ولكن إذا ما رزق الشخص بأطفال « غير شرعيين » ، فإن النتيجة تكون معقدة جدا .

وتبدو هذه الحالة بوضوح ، إذا ما كان الأطفال المترتبون على هذه العلاقة غير الشرعية هم أطفال الزوجة ، لأنه لو استمر الزواج مع ذلك فإن الزوج سيواجه حقيقة مؤلمة ، هى اختلاط الأنساب، واضطرار الزوج إلى تربية أبناء شخص آخر مع أبنائه هو..وهذا بالطبع ضد أسس الزواج البيولوجية، ويؤدى إلى توتر غريزى لا يغتفر . ولقد كان الزنا من المشكلات المهمة لهذا السبب ،إلى ما قبل اختراع موانع الحمل، ولكن موانع الحمل غيرت الوضع!

❋ ❋ ❋

وهناك نوعان من الأسباب التى تجعل الطلاق أمراً مرغوبا فيه . . الأول : تلك الأسباب التى تعزى إلى عيوب فى أحد الزوجين كالجنون ، وقد فرغنا من الحديث عنها . . والثانى : أسباب تنتج عن العلاقات بين الزوج وزوجته .

فقد يحدث أن يستحيل على الزوجين - دون ما ذنب من أى منهما - أن يعيشا معا فى وفاق وبدون تضحية كبيرة . . كأن يكون لكل منهما عمل ، يقتضيه أن يعيش حيث لا يستطيع الآخر أن يعيش ، أو كأن يتعلق أحدهما بشخص آخر تعلقا شديدا ، بدون أن يكره زوجه وأن تزداد هذه العلاقة لدرجة أن يصبح معها الرباط المقدس واهياً مهلهلا مفككا . فإذا لم يتدارك القانون مثل تلك الحالات بالنص على تحريمها ، فإن الكراهية لا تلبث أن تنمو إلى درجة قد تؤدى إلى الجريمة . . ولعل أحسن ما يصل إليه الطرفان فى مثل تلك الحالة ، هو أن يتفقا على الطلاق . أما الحالات الأخرى التى لا يلزم فيها اتفاق الطرفين ، فهى التى يفشل فيها الزواج لعيب معين فى الطرف الآخر .

وتوجد ثمة صعوبة كبيرة فى صياغة القوانين الخاصة بالطلاق ، نظراً لأن القضاة والمحكمين غالبا ما ينساقون وراء عواطفهم ، فى حين يبذل الأزواج والزوجات قصارى جهدهم للتغلب على نيات المشرع . وعلى الرغم من أن القانون فى بعض البلاد - كانجلترا - يحرم الطلاق إذا تبين أن هناك اتفاقا بين الزوجين عليه ، فإنه من الشائع أن الطلاق لا يحدث إلا باتفاقهما . وليس من غير الشائع أن يذهب الطرفان إلى أبعد من ذلك فيستأجرا شهود زور لاثبات حالة الزنا أو القسوة والوحشية ضد أحدهما لتكون أساسا للطلاق .

والطريقة الوحيدة للخلاص من هذا التحايل ، هى فى أن يتفق

الزوجان فيما بينهما على عمل الترتيبات اللازمة للطلاق . وفى هذه الحالة . يتعين أن يسويا أمورهما خارج قاعة المحكمة .

وأود أن أقترح إضافة مادة جديدة إلى القانون الذى يقضى بأن يمنع الطلاق عندما يتضح أن الاتصال الجنسى قد أصبح أمرا مستحيلا ، وذلك بان يباح الطلاق عند طلبه إذا لم يثمر الزواج أطفالا . وبعبارة أخرى ، إذا ما أراد الزوجان الطلاق ، فما عليهما إلا أن يحضرا شهادة طبية تثبت أن الزوجة ليست حاملا . أو أن إنجاب الأطفال هو هدف الزواج ، وابقاء الناس على الزواج مع عدم وجود الأطفال فيه غش وتشويه وقسوة .

* * *

وإذا ما اتصل الزواج بمسألة الأطفال ، فإن الموضوع يختلف تماما . ذلك لأن الزوجين سيحرصان ـ إذا ما كانا يكنان الحب لأطفالهما ـ على أن ينظما علاقتهما وراعيا سلوكهما ، كل إزاء الآخر ، حتى يتيحا لاطفالهما أطيب الفرص لكى ينعموا بحياة كريمة ، فيشبوا فى جو من السعادة والصحة وقد يتطلب الامر فى هذه الحالة الكثير من التضحية وضبط النفس وكبح جماحها . ويجب أن يفهم كل من الطرفين أن مصالح أطفالهما يجب أن تعلو وتسمو فوق ما تتطلبه رومانتيكية العواطف . وكل هذا يحدث من تلقاء ذاته ، إذا ما كانت العاطفة الأبوية أصيلة .

ونخلص من هذا إلى أنه : بينما نجد أن الطلاق فى بعض البلاد عسير

المثال ، فان تيسير الطلاق – فى بلاد أخرى – لا يخلق حلا أصيلا لمشكلة الزواج . ولكن هذا الاستقرار سيتحدد بطريقة أفضل ، بالتمييز بين الزواج والعلاقات الجنسية المجردة ، وبتوكيد التفرقة بين النواحى البيولوجية والنواحى الرومانتيكية للزواج الذى يعقب الحب . ولست أدعى أن الزواج يخلو من واجبات تثقل الكاهل . . . ولكن الحياة الفاضلة لا يمكن تحقيقها إلا بضبط النفس . . ولعله من الافضل كبح عاطفة محدودة ضيقة مثل « الغيرة » ، بدلا من عاطفة كريمة واسعة المجال . . . مثل «الحب» .

●

الفصل السادس عشر

السكان

إن الغرض الأساسى من الزواج هو زيادة عدد سكان الكرة الأرضية . ومن هذه النقطة . أود أن أبحث معنويات الجنس ، فى هذا الفصل .

فلقد أدى الذكاء الإنسانى وتطوره — من مرحلة الرعى إلى مرحلة الزراعة ، ثم إلى مرحلة الصناعة — إلى ازدياد عدد ذريته . فلما جاء الانقلاب الصناعى ، ارتفعت نسبة هذه الزيادة بدرجة كبيرة . وإذا كان عدد السكان فى الدول المتمدينة يميل — كما يبدو الآن — إلى الثبات والاستقرار ، فإن ذلك يعنى أن هذه الدول قد استخدمت وسائل غير عادية حتى تحولت إلى الطريق السوى للبشرية . . وهو التكاثر .

والواقع أن الناس لجأوا — فى جميع الأزمنة والعصور — إلى الحد من تكاثرهم . من تلقاء أنفسهم ، وإن لم يفطنوا ، فنجح ذلك فى بقاء نسبة عدد السكان ثابتة . أكثر مما أدى إليه ارتفاع نسبة الوفيات . ففى الصين والهند،

مثلا ، نجـد أن ارتفاع نسبة الوفيات ، يحد من الازدياد المطرد فى تـكاثر السكان . ويرجع هذا إلى تفشى الأوبئة وغيرها من الأمراض الفتاكة لاسيما فى مرحلة الطفولة . كما أن المجاعات لعبت دوراً فى انخفاض نسبة السكان بعض الشىء فى المجتمعات البدائية ، وفى البيئات الزراعية غير المتقدمة . كما أن النـاس اعتادوا أن يلجأوا إلى وسائل متعددة للحد من الذرية ، أبسطها هو قتل الأطفال ، كما كان يحدث فى بعض المجتمعات . وقد كانت النسـاء — فى شعوب كثيرة — يمتنعن عن الاتصال الجنسى إذا ما كن يرضعن أطفالا صغاراً وكانت مدة الرضاع تمتد سنتين أو ثلاثا . وبذلك تقل فرص الاتصال الجنسى المثمر فى حياة الزوجين .

وبتقدم المدنية ، وحدوث الانقلاب الصناعى ، أخذت نسبة المواليد فى أوربا تنخفض سريعاً ، وبنسبة محدودة ، اللهم إلا فى الدول المتأخرة نسبياً ، كالبرتغال ، ونلاحظ أن الانخفاض كان مرتفعاً فى البيئات الصناعية عنها فى البيئات الزراعية . وقد ابتدأ الهبوط بين الطبقات المترفة ، ولـكنه تغلغل فى كل الطبقات فى المدن والمناطق الصناعية ، وإن كانت نسبة المواليد لا تزال عالية بين الطبقات الفقيرة عنها بين الطبقات المترفة الغنية . ويرجع هذا الانخفاض — بوجه عام — إلى استعمال الوسائل المانعة للحمل ، كما يرجع إلى الاجهاض . ولا يوجد حد معين يقف عنده الانخفاض .. ومن ثم فهو قد يستمر إلى الحد الذى تتعادل عنده المواليد والوفيات ، مما يؤدى إلى ثبات معدل السكان . .

كما أنه قد يتجاوز هذا الحد ، فتكون النتيجة انقراضا تدريجياً لكثير من الأمم .

ونحن لا نستطيع أن نتمنى اختفاء معظم العناصر المتمدينة من العالم . وعلى هذا فقد يلاقى استعمال موانع الحمل ترحيباً إذا ما كان مقصوراً على تلك الحدود التى من شأنها أن تحفظ عـــــدد السكان ثابتاً كما هو فى الوقت الحاضر . ولا أعتقد أن هناك صعوبة ما فى ذلك . فإن القيود التى تحد من نمو الأسرة ترجع – فى الغالب – إلى عوامل اقتصادية . على أنه يمكن زيادة نسبة المواليد إذا ما خفضت النفقات التى تتكلفها تربية الأطفال أو رفعها عن كواهل الأهل . . على أن هذا كله قد ينطوى على شىء كبير من الخطورة فى عالمنا الذى يفيض بالوطنية ، نظراً لأن الأطفال قد يستخدمون كوسيلة هامة للحصول على التفوق العسكرى .

وهنا نواجه مرة أخرى ، ضرورة ملحة فى إيجاد حكومة عالمية ، إذا ما أردنا للحضارة أن تستمر . يجب على تلك الحكومة ، إذا ما زودت بالصلاحية اللازمة لحفظ السلم فى العالم ، أن تصدر التشريعات اللازمة التى تحدد النسبة التى يجوز عندها لأية دولة عسكرية أن تزيد من عدد سكانها ، وإلا فلن يستتب فى العالم سلام !

* * *

ومن هذا يتضح أن مسألة السكان ذات شقين : فعلينا أن نراقبها خوف

الزيادة البالغة السرعة فى عدد السكان ، كما أنه يتحتم علينا أن نقف دون تناقص السكان . والخطر الأول قديم ، ولا يزال قائماً وماثلا لدى دول كثيرة مثل البرتغال ، وأسبانيا ، وروسيا ، واليابان . والخطر الثانى حديث ، ويتمثل فقط لدى دول غرب أوروبا . من المحتمل أن يوجد أيضاً فى أمريكا لو أن أمريكا اعتمدت فى سكانها على نسلها فقط ، ولكن الهجرة إليها قد تسببت فى زيادة سكان أمريكا زيادة مطردة ، على الرغم من نسبة المواليد بين المواطنين الأمريكان أنفسهم .

والخطر الجديد ، وهو تناقص السكان وتضاؤل عددهم ، خطر لم تألفه عاداتنا الفكرية الموروثة بعد . ولكن استعمال وسائل منع الحمل قد أصبح وسيلة عملية شائعة لدى جميع الأمم المتحضرة ، ولا يمكن الآن التخلص منها أو الاقلاع عنها . فإن عادة عدم مجابهة الحقائق المتعلقة بالأمور الجنسية ، متغلغلة إلى أعماق بعيدة ، ولها جذور عميقة لدى الحكومات والهيئات مما لا يتوقع معه أن تتوقف فوراً . والطريق السوى فى أية أمة مهددة بنقص فعلى ، هو تخفيض الأعباء المالية التى تتطلبها تربية الأطفال ، حتى يمكن الوصول إلى النقطة التى تبلغ عندها نسبة المواليد الدرجة التى تحفظ مستوى السكان عند مستواه الحالى .

بقيت مسألة واحدة — فى هذا المجال — قد يتغير معها نظامنا الأخلاقى الحالى ، مع تحقيق شىء من الفائدة . ذلك أن عدد النساء يزيد على عدد الرجال فى بعض البلاد ، وهذا العدد الزائد ، قدر عليه — فى البلاد التى تحرم تعدد

الزوجات — أن يبقى بلا أطفال . وهو حرمان قاس لآلاف من الأناث ..
إن نظام الزواج بامرأة واحدة فقط ، وتطبيقه تطبيقاً صارماً ، قائم على أساس افتراض أن عدد أعضاء الجنسين متساو تقريباً . وما دامت الحالة ليست كذلك ، فإن فى بقائه قسوة بالغة لأولئك اللائى تضطرهن الظروف إلى البقاء عانسات .

●

الفصل السابع عشر

"اليوجينية" أو تحسين النسل

اليوجينية هى محاولة تحسين التقويم البيولوجى للكائن الحى باتباع طرق متباينة للوصول إلى الهدف ، والمصدر المباشر للأفكار الخاصة بتحسين النسل هو « فرانسيس جالتون » الذى أكد قوة أثر عنصر الوراثة فى العمل الإنسانى . ولقد أصبحت الوراثة ، فى عصرنا الحاضر — وعلى الأخص أمريكا — من المسائل الحزبية . فالمحافظون من الأمريكيين ، يعتنقون مذهباً مؤداه أن السلوك الإجمالى للرجل البالغ ، يرجع فى أساسه إلى خصائص وراثية .. بينما يصر التقدميون على العكس من ذلك ، فيرون أن التعليم هو كل شىء ، والوراثة لاشىء . ولا أستطيع أن أوافق أيا من هذين المذهبين على تطرفه ، فالواقع أنه لايوجد معيار يمكن على أساسه الجزم بمدى القدرة البشرية ، أى جزء منها يرجع إلى الوراثة وأى جزء يرجع إلى التعليم ، ورأيي الشخصى — الذى أعترف بأنه لايقوم على أساس من العلم وإنما بنى على معتقداتى الخاصة المجردة — هو أنه إذا صح أن فى الإمكان تحطيم أى شخص عن طريق تلقينه تعليما سيئاً ، فاننا نجد أشخاصاً معينين بذواتهم ، أوتوا

استعدادات معينة موروثة ، تمكنهم من أن يحققوا تفوقاً عظيما فى اتجاهات مختلفة .

لست أعتقد أن أى قدر من التعليم يمكن أن يحول الطفل العادى إلى عازف « بيانو » من الطراز الأول ، ولا أن أحسن مدرسة فى العالم تستطيع أن تحولنا جميعاً إلى أشخاص مثل « أينشتاين » . وإنما الذى أعتقده أن لدى النوابغ استعداداً فطريا يجعل من شأن التعليم أن يحدث نتائج أفضل بكثير مما يحدث مع الاستعداد العادى . . وعلى هذا الأساس ، فاننى أسلم – بدون جدال – بأن بنى الإنسان يختلفون فيما بينهم فى القـدرات العقليـة للوراثة ومأفترض أيضاً أن الأذكياء أفضل من أضدادهم .

* * *

واليوجينية نوعان : إيجابية ، وسلبية . تختص الاولى بتشجيع الارصدة الجيدة ، وتختص الثانية بعدم تشجيع الاصناف الرديئة . وتعتبر الاخيرة قائمة بالفعل فى الوقت الحاضر ، وقد قطعت أشواطاً بعيدة – فى الواقع – فى بعض ولايات أمريكا ، كما يعتبر تعقيم غير اللائقين داخلا فى نطاق السياسة العملية المباشرة فى انجلترا . وليس هناك مايبرر الاعتراضات على مثل هذا الإجراء . فمن الممكن أن تنجب ضعيفات العقل من النســاء عدداً كبيراً من الاطفال غير الشرعيين ، لا تـكون لهم أية قيمة من الناحية الاجتماعية . . وتـكون أولئك النسوة أسعد حالا لو تم تعقيمهن ، لان من المصلحة العامة

ألا ينجبن أطفالا . وينطبق نفس الشيء بالنسبة للمجانين والمعتوهين من الرجال ويتضمن هذا النظام بعض مخاطر شديدة ، إذ يتيح للسلطات أن تعتبر أى صوت يرتفع بالمعارضة ضد سياستها ، أو بالمناداة برأى يخالف ما استقرت عليه ، دليلا على الجنون والعته والضعف العقلى .

لذلك فمن الواجب أن تكون إجراءات العقم مقصورة — فى رأيى — على الأشخاص الذين بهم قصور عقلى فقط ، ومن ثم فلست أملك قوانين كتلك القوانين السارية فى ولاية « إيداهو » الأمريكية ، والتى تسمح بإحداث العقم فى حالات « القصور العقلى ، والصرع ، والاعتياد الإجرامى ، والشذوذ الأخلاقى ، والشذوذ الجنسى » . وإن مثل هذه القوانين قد تخلق تبريراً لتعقيم شخصيات كأفلاطون ويوليوس قيصر ، والقديس بولص . بل إن معتاد الإجرام قد يكون ضحية لنوع من المرض العصبى الذى تسهل معالجته بالتحليل النفسى .

وفى انجلترا وأمريكا ، تصاغ القوانين المتعلقة بهذه الموضوعات فى إطار من الجهل بعمل رجال التحليل النفسى ، وهى لذلك تعتبر متخلفة حوالى الثلاثين عاما عن أفضل ما وصلت إليه المعرفة فى العصر الحاضر . والواقع أنه من الخطورة بمكان أن نضع تشريعات لمثل هذه الأمور إلا إذا وصل العلم إلى نتائج ثابتة أكيدة . وإلا فإن الأفكار الزائفة ستصبح جزءاً من مصادر اللوائح والقوانين التى يطبقها القضاء . ويترتب على ذلك عرقلة التطبيق العملى للآراء أفضل وأصح .

والقصور أو الخلل العقلى هو — فى اعتقادى — الشىء الوحيد الذى يعتبر — فى الوقت الحالى — كافياً تماماً لأن يكون سبباً لاتخاذ إجراء قانونى فى هذا الصدد ، ويمكن إقرار ذلك بطريقة إيجابية . . بينما نجد أن الشذوذ الأخلاقى مثلا موضع خلاف فى الرأى . فالرجل الذى يعتبره إنسان ما شاذ الأخلاق ، قد يعتبره إنسان آخر نبياً . والذى أراه هو أن معرفتنا وثقافتنا العلمية ليست ـ فى الوقت الحاضر ـ مما يؤهلنا للبت فى هذا الصدد ، ولعله يكون من الخطر فى أى مجتمع أن يسمح للمعتقدات الأخلاقية الشائعة ، بأن تتمسح فى أردية العلم ، كما حدث فى مختلف الولايات الأمريكية .

* * *

وننتقل الآن إلى « اليوجينية » الإيجابية ، التى تمتاز بإمكانيات أكثر طرافة ، على الرغم من أنها مازالت تتطلع إلى المستقبل ، والأصـــل فى « اليوجينية » الإيجابية هو محاولة تشجيع الوالدين الراغبين فى إنجاب عدد كبير من الأطفال ، غير أننا نجد أن نقيض ذلك تماماً هو الذى يحدث بصفة عامة فى الوقت الحاضر . فالطفل الذى أوتى ذكاء فوق المتوسط ، نجده يسترسل فى التعلم حتى يتقن إحدى المهن . ومن المحتمل ، بعد ذلك ، أن يتزوج فى سن الخامسة والثلاثين أو الأربعين . بينما نجد أن أقرانه من أبناء بيئته الاصلية، الذين لم يؤتوا حظه من الذكاء يتدربون على بعض الحرف ، ويتزوجون فى سن الخامسة والعشرين . وتعتبر تكاليف التعليم عبئاً ثقيلا

فى الدراسات المهنية ، وهذا سبب يدعو أصحاب المهن الحرة إلى أن يحددوا عدد أعضاء أسرهم فى نطاق ضيق . . ومن المحتمل أن يكون مستواهم العقلى أعلى إلى حد ما من معظم الطبقات الأخرى ، مما يصبح معه هذا التحديد شيئاً يدعو للأسف . وأبسط إجراء لمعالجة حالتهم يكون بمنح أطفالهم تعليما مجانياً ، حتى المرحلة الجامعية . وبعبارة أخرى وبمعنى أوسع ، فإن المنح الدراسية يجب أن تعطى على أساس مميزات الوالدين لا على مميزات الأطفال .

وعلى أية حال ، فمن المحتمل أن يصبح من المستحيل على الدولة — فى انجلترا وأمريكا — ألا تتخذ أية إجراءات تساعد رجال المهن على تكوين عائلات كبيرة . ولا يقف فى الطريق غير الديمقراطية ذلك أن «اليوجينية» تقوم على افتراض أن الرجال غير متساوين ، بينما تقوم الديمقراطية على افتراض أنهم متساوون . لهذا يكون من الصعب جداً — من الناحية السياسية — تنفيذ الآراء الخاصة بعلم الأجناس فى مجتمع ديمقراطى .

تصور فلاحا ، قيل له إن عليه أن يتيح لكل بقرة فرصا متساوية فى النسل . وعلى هذا ، فإن الثور الذى يعتبر الوريث للسلالة الثانية سيختار — كأمر يحتمه الواقع — على أساس ما كانت تمتاز به أنثى أسلافه من حيث إدرار اللبن . ذلك لان الميزات الدائمة تلصق فقط بالاناث ، أما الذكر فإنه يكون — فى أفضل حالاته — ناقلا لفضائل الانثى . وقد طرأ تحسن كبير على الحيوانات الاليفة ، بفضل طرق التربية العلمية . وليس هناك مجال للتساؤل

عما إذا كان من الممكن تحسين أو تغيير بنى الانسان ، عن طريق إدخال طرق مماثلة لتوجيه النسل البشرى فى أى اتجاه نرغبه .

من الطبيعى أن يكون الامر أكثر صعوبة ، عندما نريد أن نحدد ماذا نريد من بنى الانسان . قد يكون ما نريده ، هو أن نعنى بتنمية القوة البدنية ، ولو أدى هذا إلى أن نقلل من شأن العقول . وقد يكون ما نريده ، هو أن ننمى فى النسل الكفاءة العقلية ، فننصرف إلى هـذا بدرجة أكثر عرضة لمختلف أنواع الأمراض . والمعرفة الحقيقية والثقافة اللازمة - فى كل هذه الأمور - ليس لها وجود . وعلى هذا ، فليس من المرغوب فيه الإسراف فى الإقبال على « اليوجينية » الإيجابية فى الوقت الحاضر . غير أنه قد يصبح من الميسور - خلال المائة عام القادمة - أن تخطو علوم الوراثة والكيمياء العضوية خطوات واسعة ، إلى الدرجة التى تجعل فى الإمكان تربية جنس يعتبره كل إنسان أرقى وأفضل من الجنس الموجود حالياً .

وقد يتطلب تطبيق المعرفة العلمية التى من هذا القبيل ، على أية حال ، تطوراً جوهرياً فى شئون الأسرة ، يفوق كل ماتتناوله هذه الصفحات . وإذا أردنا للتربية العلمية أن تتم بعناية ، فقد يلزم أن نخصص فى كل جيل اثنين أو ثلاثة فى المائة من الذكور ، وما يقرب من ٢٥ ٪ من الاناث بغرض التربية . وقد يكون من اللازم أن يجرى اختبار عند البلوغ ، يقضى فيه بالتعقيم على كل من لاينجحون فى اجتيازه . أما الذين ينجحون فهم الذين يتولون التهجين ، على أن لا يكون للأب أية علاقة - بعدذلك - بثمرته

أما الأم ، فإنها تكون متخصصة مهنياً للتربية ، وتمتاز عن أية امرأة أخرى فى حياتها . ولست أزعم أن هذه الحالة ستحدث ، ولا أقول إنى أرغب فى حدوثها — ولو بدرجة قليلة — بل إننى أجدها شيئاً مهيناً مزريا . ولكنها مع ذلك كفيلة بأن تحدث نتائج مدهشة . دعنا نفترض ، جدلا ، أنها اتبعت فى اليابان مثلا وأن اليابانيين لم يلبثوا أن يصبحوا بعد ثلاثة أجيال — فى ذكاء « اديسون » وفى قوة أشد الملاكمين بأساً . فاذا بقيت الأمم الأخرى فى الوقت ذاته على حالها ، فإنها لن تلبث أن تعجز عن أن تقف فى وجه اليابان من الناحية الحربية . وسيجد اليابانيون — وقد وصلوا إلى مثل هذه الدرجة من المقدرة والكفاءة — طرقا ووسائل لاستخدام رجال الأمم الأخرى كجنود ، وسيعتمدون على فنونهم العلمية فى إحراز الغلبة على الأمم الأخرى .. وعندها تصبح الطاعة العمياء أمراً من السهل تنشئة الشباب وتعويدهم عليه . فمنذا الذى يستطيع أن يجزم بأن تقدما من هذا النوع ، يعتبر أمراً مستحيلا فى المستقبل ؟

* * *

وهناك نوع شائع من « اليوجينية » لدى فئة معينة من رجال السياسة ورجال الدعاية ، يمكن تسميته «يوجينية الأجناس» . ومضمون هذا المذهب أن نوعا أو جنساً معيناً بذاته أو أمة — هى التى ينتمى إليها الكاتب بالطبع — أسمى وأرقى من سائر الأجناس الأخرى ، ويجب أن تستعمل قوتها العسكرية

لزيادة عددها على حساب الأجناس أو الأقوام الأقل شأناً . . وهذا النوع من « اليوجينية » ، يمكن أن يتمشى مع مذهب « داروين » القائل بأن « البقاء للأصلح » . ولعله يكون من العجيب ، أن أشد أنصار المذهب تغالياً وتطرفا هم أولئك الذين يعتبرون تعاليم « داروين » غير مشروعة .

والدعاية التي تقوم على « يوجينية » الأجناس تعتبر غالباً من نوع غير مرغوب فيه . ولكننا جديرون بأن نغضى عن كل هذا ، لنحاول أن ندرس المسألة من ناحية مميزاتها .

هناك بعض الشك ، فى صحة التطرف الذى يندفع إليه أولئك الذين يؤمنون بخرافة تفوق جنس على آخر ، ويتخذون من « يوجينية الأجناس» مبرراً لغزو الشعوب التي يعتبرون أهلها من أجناس أدنى أو أقل مستوى .

ولقد أثبتت الإحصاءات أن الحضارة الغربية ـ القائمة على الصناعة ـ تنحو إلى تخفيض نسبة المواليد . كما أنه لايمكن لدولة ما أن تصبح قوية من الناحية العسكرية إلا بعد أن يتم تصنيعها . ويأتى مع التصنيع نوع من العقلية ينحو إلى تحديد عدد أعضاء الأسرة . وعلى هذا ، فليس لنا إلا أن نستخلص أن ما يتنبأ به بعض ساسة الغرب ، من أن ارتفاع معدل تزايد السكان لدى الشعوب الشرقية ، لن يلبث أن يؤدى إلى سيطرة الشرق على الغرب . وقد يستمر دعاة الحرب ، على أية حال ، فى استعمال هذا البوق بين الآخرين ،

إلى أن يأتى الوقت المناسب الذى تحدد فيه هيئة دولية مختصة ، القدر المسموح به لكل دولة من الزيادة فى عدد السكان .

على أن تحديد عدد سكان كل دولة ، لن يحد من الأخطار ، إذا ظل العلم على تقدمه السريع ، بينما تستمر الفوضى الدولية قائمة ، ذلك أن العلم يتيح لنا أن نحقق أغراضنا . . وإذا ما كانت أهدافنا سيئة أو ضارة ، فإن النتيجة تكون كارثة محققة . وإذا ماظل العالم مليئاً بالحقد والكراهية والشرور ، فإن تقدم العلم يزيد الفزع والرعب الذى يغشى القلوب . ويعتبر الإقلال من هذه العواطف المدمرة ضرورة أساسية للتقدم البشرى ونشوؤها يعتبر نتيجة لنظرية جنسية خاطئة ، أو ثقافة جنسيه رديئة . كما يعتبر إيجاد نظريات جديدة فى الجنس أفضل من القديمة ، عملا يستهدف صالح المدنية فى المستقبل ، ولا غنى عنه إطلاقا . هذه هى الحقيقة التى تجعل إصلاح الأخلاق الجنسية إحدى الضرورات والاحتياجات الحيوية لعصرنا الحالى .

والنظريات الجنسية ، من وجهة نظر الاخلاق الفردية ، تعطى المكان الاول للاعتبارات « اليوجينية » ، إذا ما قامت على أسس علمية وليس على خرافات . وبعبارة أخرى فهما تخفف القيود الحالية على الجماع ، فإن أى رجل وأية امرأة أوتيا ضميرين حيين ، لايمكن أن يقدما على علاقة من شأنها الحمل ، بدون أن يوليا الاعتبار الاول للقيمة والاوضاع التى ينتظر أن تكون لاطفالها . وقد أدت موانع الحمل إلى جعل الابوة مسألة اختيارية ، فلم تعد بذلك نتيجة حتمية لاتصال أو مجامعة جنسية . وإنما أصبح من الممكن

الاستمتاع بالاتصال الجنسى ، دون انجاب أطفال ، ويبدو أنه من المحتمل ـ لاسباب اقتصادية متعددة تعرضنا لذكرها فى الفصول السابقة ـ أن يبدى الاب قدرا ضئيلا من الاهتمام بتثقيف وتعليم وتربية الاطفال فى المستقبل ، أكثر مما كان يبديه فى الماضى . وبالتالى ، فلن يكون هناك سبب معين بالذات ، يحتم على المرأة أن تختار الرجل الذى تفضله كعشيق أو كرفيق ، ليكون والدا اطفلها . وقد يصبح من الميسور بالنسبة للنساء ـ فى المستقبل ـ اختيار آباء لاطفالهم ، على ضوء الاعتبارات « اليوجينية » ، بدون أية تضحية جديدة بالسعادة .. بينما يطلقن لعواطفهن العنان فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية العادية .. كما يظل من الممكن ـ بالنسبة للرجال ـ اختيار أمهات لاطفالهم ، نظرا لرغبتهم فى أن يصبحوا آباء .

والذين ينادون ـ مثلى ـ بأن السلوك الجنسى يتعلق بالمجتمع ، فيما يختص بإنجاب الاطفال فقط ، يجب أن يستخلصوا من هذه القضية نتيجة ذات شقين ، فيما يتعلق بالاخلاق فى المستقبل .. فمن الواجب ـ من ناحية ـ أن يكون الحب حرا طليقاً ، بعيدا عن إنجاب الاطفال . ولكن إنجاب الاطفال ـ من الناحية الاخرى ـ يجب أن يكون أمرا منظما بعناية تفوق ماهو عليه الحال لآن ، نظرا لاعتبارات أخلاقية . وهذه الاعتبارات ستكون مختلفة بعض الشىء عن تلك المعترف بها فعلا .

ولكى تصبح الولادة — فى حالة معينة — شرعية ، فلن يصبح من الضرورى بعد ذلك أن تقال كلمات معينة بواسطة مسجل .. وهى مراسم

الزواج المتبعة الآن ، لأنه ليس هناك دليل على أن مثل تلك الأعمال تؤثر فى صحة أو ذكاء المولود الصغير . إنما الشىء الجدير بالاعتبار ، هو أن يكون اختيار الرجل والمرأة على أساس مالديهما من صفات بالوراثة ينقلانها إلى من ينجبان من أطفال مرغوب فى بقائهم . . وعندما يصبح العلم قادراً على أن يدلى برأى حول هذا الموضوع - بمزيد من التفصيل - فإن الحاسة الأخلاقية للمجتمع قد تصبح أكثر دقة من وجهة النظر « اليوجينية » . فيصبح من الأفضل جعل الرجال - الذين يمتلكون أفضل مقومات الوراثة - آباء . . بينما نجد رجالا آخرين ، يباح لهم أن يكونوا عشاقا ، ولكنهم محرومون من إرضاء رغبتهم فى الأبوة .

وينظر نظام الزواج - كما نشأ وألفناه - إلى هذه المشروعات كأمور مجافية للطبيعة البشرية . وأعتقد أنه يجب أن تقيد الإمكانيات العملية لليوجينية إلى أضيق الحدود ، ولكن ليس هنالك من سبب يدعو لافتراض أن الطبيعة البشرية ستعارض فى المستقبل مثل هذه الحدود ، وذلك نظرا لأن موانع الحمل كفيلة بأن تقصى الحمل عن العلاقات الجنسية التى لا يراد منها إنجاب أطفال . ومن المحتمل ألا يكون بين الآباء وأبنائهم فى المستقبل مثل هذه الرابطة الشخصية التى كانت بينهم فى الماضى . وسيضطر علماء الأخلاق - إذ ذاك - إلى أن يربطوا الغرض الاجتماعى الأسمى الذى كانوا يعلقونه على الزواج بإنجاب الأطفال فحسب .

وعلى الرغم من أن هذه النظرية الأخلاقية يجب أن تبدأ كعقيدة فردية

لدى فئة معينة من العلماء غير العاديين ، فمن المحتمل أن تنمو وتنتشر بصورة أكبر ، حتى يفسح لها القانون مكاناً بين نصوصه ، فى صورة من المحتمل أن تكون على هيئة مكافآت مالية للآباء الراغبين فى أن ينجبوا نسلا ، وغرامات مالية لغيرهم من غير المرغوب فيهم . وفكرة السماح للعلم بأن يتدخل فى دوافعنا الشخصية الخاصة ، فكرة مستهجنة بلا مراء . ولكن التدخل المقصود سيكون بدرجة أقل من التدخل الذى سمح به فى العصور الماضية بالنسبة للدين . إن العلم جديد فى الدنيا ، ولم تصبح له بعد تلك السطوة التى كانت للدين من قبل . غير أنه قابل لأن يكتسب نفس السطوة وأن يسيطر على الناس فيخضعوا له بنفس درجة الامتثال التى كانت طابعاً لموقف الناس من تعاليم الدين .

إن رفاهية الأطفال باعث يكفى — فى حد ذاته — لفرض الرقابة على الرجل العادى فى لحظاته العاطفية ، أما إذا أصبحت جزءا من أخلاق إيجابية مشروعة - بما فى ذلك من جزاء لا يقتصر على المدح أو الذم فقط ، إنما يتمثل فى مكافآت أو عقوبات اقتصادية - فسيصبح هذا الباعث أساساً لا يمكن لأى شخص مثقف أن يتجاهله .

●

الفصل الثامن عشر

الجنس والرفاهية الفردية

أريد ـ فى هذا الفصل ـ أن أستعيد ما قلت فى فصول متقدمة عن آثار الجنس والأخلاق الجنسية على السعادة والرفاهية الفردية . ولن نهتم فى هـذا الشأن بفترة النشاط الجنسى فقط فى حياة الفرد ، ولا بالعـلاقات الجنسية الحالية ، فإن الأخلاق الجنسية تؤثر فى الطفولة ، وفى سن المراهقة ، بل وفى الشيخوخة بكافة الطرق ، حسنة كانت أو سيئة تبعاً للظروف . . إذ أن الأخلاق المتعارف عليها تبدأ عملها بفرض قيود فى مرحلة الطفولة . فيلقن الطفل ، فى سن مبكرة جدا ، ألا يلمس أجزاء معينة من الجسم ، كما يتعلم أن يتكلم فى صوت خفيض ، يصل إلى درجة الهمس ، عندما يريد أن يعرب عن رغبته فى قضاء حاجة ، كالتبول أو التبرز ، وأن يقوم بذلك بعيدا عن الأعين .

على أن الطفل لا يستطيع أن يفهم السر فى أن يكون لأجزاء معينة من الجسم ، ولأعمال معينـــة ، طابع خاص غريب ، فيبعث فيه هذا حب الاستطلاع ، لاسيما وأن هذه الأمور تحاط دائماً بالسرية والكتمان . كما أنه

يفكر – فى صمت وهدوء – فى بعض المشاكل العقلية الخاصة ، مثل السؤال : «من أين يأتى الأطفال ؟» ، نظرا لأن الإجابات التى يتلقاها من الكبار عن هذا السؤال لا تشبع فضوله ، أو أنه يتبين فيها رنة الكذب . وإننى لأعرف رجالا ، أصبحوا الآن شيوخا ، كان والد الواحد منهم يقول له ، فى كآبة وجد ، إذا رآه يلمس أجزاء معينة من جسمه : « إننى أوثر أن أراك ميتاً ، عن أن أراك تفعل ذلك! » . ويؤسفنى أن أقرر أن الأثر الناتج عن ذلك ، كان أبعد مما يرجوه علماء الأخلاق . وليس من المستبعد على الأب أن يستعمل التهديد .. والشائع هو تخويف الطفل بأن لمس تلك الأجزاء يؤدى إلى الجنون . . وينتج عن هذا التعليم ، أن يتكون لدى معظم الأطفال – فى بواكير طفولتهم – شعور عميق بالإثم والفزع ، يرتبط بأمور الجنس . ويذهب هذا الارتباط بين الإثم والجنس بعيدا ، لدرجة يستكن معها فى اللاشعور تماماً .

ولكم أود أن يكون فى الإمكان أن ننشىء استجواباً إحصائياً بين الرجال الذين يعتقدون أنهم قد تحرروا من هذه القصص التى كان يقصها عليهم الخدم ، عما إذا كان فى استطاعتهم أن يقبلوا على الزنا خلال عاصفة من الرعد والبرق مثل الرغبة التى يقبلون بها عليه فى أى وقت آخر . وأعتقد أن تسعين فى المائة منهم يظنون – فى أعماق قلوبهم – أنهم لو فعلوا ذلك لصعقهم البرق لتوه !

وعلى الرغم من أن كلا من السادية والماسوشية تعتبر – فى صورها

البسيطة - عادية ، فإنها مرتبطة فى مظاهرها بالإثم الجنسى . فالماسوشى رجل يشعر بإثمه الخاص فيما يتعلق بالجنس بشكل حاد . أما السادى فرجل يتجه شعوره بالإثم إلى تعذيب المرأة ، باعتبارها مصدر الإغراء . وعندما يتقدم الإنسان فى العمر ، يلمس مدى تأثير التعاليم التى كان يتلقاها فى الطفولة ، كتعاليم أخلاقية ، على اتجاهه إلى القسوة التى لامبرر لها .

إن الطفولة والشباب ، مرحلتان من مراحل الحياة ، تغدو خلالهما الشراسة والفتوة والاقدام على الأعمال الممنوعة من الأمور الطبيعية التى يأتيها المرء دون ماندم ، اللهم إلا إذا بالغ فى ممارستها . غير أن ارتكاب الممنوعات والنواهى ، فى ميدان الجنس ، يختلف لدى الكبار البالغين عن مخالفة أية قواعد أخرى . وبالتالى ، فان الطفل يشعر بأنها تنتمى إلى نوع مختلف تماماً . فأنت قد تنزعج ، أو تضيق بالصغير إذا مارأيته يسرق ثمارا من الحديقة ، وقد تسبه بصوت مرتفع . . أما إذا كنت شخصاً من الطراز القديم ، ووجدت فتى يمارس العادة السرية ، فان صوتك ستشوبه نبرة لايمكن أن يسمعها مطلقاً بخصوص أى موضوع آخر . هذه النبرة تحدث هلعاً وتوحى إليه بأنك تحتقره . . لأن الطفل قد لايستطيع أن يقلع عن هذا السلوك الذى تسبب فى احتقارك له والطفل يعتقد، وهو يؤمن - مما يراه من استنكارك - بان ممارسة الاستمناء (أو العادة السرية) عمل شرير . ومع ذلك ، فانه يظل سادرا فى غيه ، مستمرا فى أدائها ، لأنه قد يعجز عن الانصراف عنها . . ولكنك إزاء ما أوحيت إليه أن عمله إثم لايلبث أن يحرص على

أن يكون اقتراف إثمه سرا ، ويجد عزاء جزئياً - فى الواقع - فى أن أحدا لايراه أو يعلم بجريرته . ونظرا لأنه يصبح غير سعيد مطلقاً ، فانه يسعى إلى الانتقام من العالم ، بمعاقبة أولئك الذين كانوا أقل منه نجاحا فى إخفاء ذنب مماثل . وهو إذ يتعود الغش منذ الطفولة ، فانه لايجد صعوبة فى ممارسة هذا الغش عندما تتقدم به السن . وهكذا يصبح منافقاً عليلا ، منطويا على نفسه ، مضطهدا . . نتيجة لما كان من سوء تقدير الكبار - لاسيما الوالدين - إذ أجبراه على سلوك معين يعتقدان أنه هو الفضيلة .

يجب أن لا يسيطر الإثم ولا العار ولا الخوف على حياة الأطفال وأرواحهم . . يجب أن يكون الأطفال سعداء مسرورين فى ألعابهم ، وألا تخيفهم دوافعهم الذاتية . . يجب ألا يمنعوا من اكتشاف حقائق الطبيعة ، وألا يحملوا على إخفاء كل نشاطهم الغريزى فى الظلام ، وعلى أن يدفنوا فى أعماق اللاشعور الدوافع التى لا يستطيعون التخلص منها ، بما يبذلون من جهد . . وإذا أريد لهم أن ينموا نموا طبيعياً ، حتى يشبوا رجالا ونساء طبيعيين - يتميزون بالذكاء والأمانة ولا يخشون شيئا فى المجتمع - وحتى يكونوا أقوياء فى أفعالهم متسامحين فى آرائهم ، فيجب أن نبدأ أولا بتدريبهم ، حتى يتسنى الحصول على هذه النتائج الممكنة .

وقد ضرب العلم لنا مثلا ، لمدى التشابه بين تعليم الصغار وتدريبهم وبين تدريب الدببة الراقصة . فالدببة توضع على أرض ساخنة فتضطر إلى الرقص ، لأن أصابعها تتعرض للاحتراق إذا هى ظلت واقفة . وفى أثناء

حدوث هذا ، تعزف نغمة موسيقية خاصة أثناء هذا التدريب . وبعد مضى مدة معينة ، يكفى أن تعاد على أسماع الدببة هذه النغمات الموسيقية الخاصة ، لكى ترقص ، دون ما اضطرار الى الوقوف على أرض ساخنة . . وكذلك الحال مع الأطفال ، فعندما يتنبهون إلى إدراك وجود أعضائهم الجنسية ، يؤنبهم الكبار على ذلك . فإذا كان ارتباط هذه الأعضاء بالتأنيب فانه يقضى — فى النهاية — قضاء تاما على إمكان تمتعهم بحياة جنسية صحية أو سعيدة .

وفى المرحلة التالية ، وهى دور المراهقة ، نجد أن الابتئاس والجزع الناشئين عن طريقة معالجة أمور الجنس يغدوان أشد مما كانا فى مرحلة الطفولة . فكثير من الأولاد لايعلمون مايجرى ، عندما يمارسون القذف لأول مرة فيصيبهم الهلع ، إذ يجدون أنفسهم وقد امتلأوا بدوافع تعلموا أن ينظروا إليها على أنها عمل شرير للغاية . وتكون هذه الدوافع من القوة بحيث تملك عليهم مشاعرهم وحواسهم ليلا ونهارا . وفى الوقت ذاته ، نجد لدى نوع أرقى من الأطفال ، دوافع تنحو نحو المثالية ، والجمال ، والشعر ، والحب المثالى الذى يميل الفكر إلى اعتباره منفصلا تماما عن الأمور الجنسية .

والمراهقة — كما يعلم كل إنسان — فترة تكون فيها الاضطرابات العصبية شيئا كثير الحدوث ، ويسهل فيها أن يفقد الأشخاص — الذين يكونون فى الأوقات العادية على قدر كبير من الاتزان — اتزانهم .
وتبين « مس ميد » فى كتابها « البلوغ فى جزيرة ساموا » ، أن متاعب

المراهقة غير معروفة فى هذه الجزيرة . وهى تعزو ذلك إلى الحرية الجنسية المتاحة للجميع . وتبرهن على رأيها بأن بعض الفتيات اللاتى كن مقيمات فى منزل البعثة التبشيرية بالجزيرة — وبالتالى ، كن يتلقين تعليمات المبشرات التى تحذرهن من الجنس — اعترفن بأنهن كن يمارسن العادة السرية والاتصال الجنسى بالرجال — فى فترة المراهقة — بينما كانت زميلاتهن اللاتى يعشن فى أمكنة أخرى ، يمارسن أنواعا مختلفة من اللذة الحسية الجنسية .

والحال لا يختلف فى أرقى المدارس عندنا ، عنه فى منزل تلك البعثة التبشيرية . ولكن الأثر النفسى للسلوك — الذى يعتبر فى « ساموا » غير ضار — يعتبر فى مدرسة إنجليزية شيئا مروعا ، لأن النشء يدرجون على احترام ما تعارف عليه الناس فى التربية والتعليم ، بينما ينظر أهل « ساموا » إلى المبشر على أنه مجرد رجل أبيض له أذواق غريبة خاصة يجب أن يتندر بها .

ويعانى معظم الشبان — فى السنوات الأولى من بلوغهم — متاعب وصعوبات قد لا يكون ثمة داع لها ، لو أنهم كانوا على بصيرة بالأمور الجنسية . فالشاب ، إذا حرص على أن يبقى نقيا طاهر الذيل ، فقد تؤدى به الصعوبة فى ضبط النفس إلى أن يصبح جبانا ، منطويا على نفسه ، حتى إنه عند ما يتزوج — فى النهاية — لا يستطيع التخلص من ضبط النفس الذى روض عليه نفسه خلال السنين الماضية ، وهذا يؤدى بدوره إلى أن يخذل

زوجته ويعجز عن أداء دور العاشق لها . وإذا ما تردد على البغايا ، فإن الصراع بين الاعتبارات البيولوجية والمثالية فى الحب - التى تكون قد نشأت فى فترة المراهقة - يعود إلى الظهور . مما ينتهى بعلاقاته بالنساء إلى أن تصبح بعد ذلك أفلاطونية أو أن تغدو - فى اعتقاده - شائنة . وعلاوة على ذلك ، فإنه يتعرض لمخاطر كبيرة ، من احتمال إصابته بالأمراض التناسلية .

ومن الصعب على الرجل أن يتزوج فى سن مبكرة ، وذلك راجع إلى الخيلاء والاعتزاز بالحرية من ناحية ، وإلى الاعتقاد بأن الزواج يجب أن يؤدى إلى إنجاب الأطفال مباشرة . وبالاضافة إلى ذلك ، فحيثما يكون الطلاق صعب المنال ، يكون الزواج المبكر ذا أخطار كبيرة ، نظراً لأن الزوجين اللذين يتوافقان وهما فى سن العشرين ، قد لا يتوافقان فى سن الثلاثين ، فالعلاقات الثابتة الوطيدة مع شريك واحد قد تتعذر على كثير من الناس ، إلى أن تتوفر لديهم التجارب التى تأتى مع التغيير والتنويع . وإذا كانت نظرتنا إلى الأمور الجنسية سليمة ، فعلينا أن نتوقع أن يعمد طلبة الجامعة إلى الزواج المؤقت - أو زواج الزمالة - ولو بدون إنجاب أطفال . فيتحرروا من ربقة الجنس والكبت ، الذى يؤثر كثيرا - فى الوقت الحاضر - على شئون العمل والانتاج . ويمكن للشباب اكتساب تلك الخبرة مع الجنس الآخر على أساس أنها تمهيد لزمالة جدية نحو زواج يثمر أطفالا . ويكونون بعد ذلك أحراراً فى تذوق الحب ، بدون الالتجاء إلى

التكتم والخديعة والتخفى والهلع من الإصابة بالأمراض التناسلية وما إلى ذلك من عوامل تصحب مغامرات الشباب وتشوهها .

* * *

والعرف الاخلاقى كثيرا ما يكون شديد الوطأة على تلك الفئة من النساء اللائى يضطررن إلى البقاء بلا زواج . وقد تتسبب هذه الحالة فى إنزال الضرر بهن وكانا نعرف نساء من اللائى يستحققن أكبر درجة من الإعجاب من جميع النواحى نظرا لأنهن تمسكن بأهداف الفضيلة إلى درجة التزمت . ولكنى أعتقد أن القاعدة العامة تختلف عن ذلك . فالمرأة التى لم تؤت خبرة جنسية، وتؤمن بان الاحتفاظ بعفتها هو أهم واجب عليها ، إنما تقيد نفسها برد فعل عكسى مصبوغ بالخوف . وبالتالى ، هى تجبن عما يمس العفة ، بينما يملأ الحقد الغريزى قلبها بعداوة لا شعورية للناس ، وبرغبة فى الانتقام ممن ينعمون بما حرمت هى منه وقاست من حرمانه الويلات . ويعتبر الجبن العقلى خاصة شائعة عند العذارى اللائى تطول فترة عنوستهن .. ولعل هذا هو السبب فى قسوة المدرسات العوانس على تلميذاتهن .

وإننى لا أميل إلى الاعتقاد بأن النقص العقلى — الذى يوجد لدى النساء — يرجع فى أساسه إلى الضغط على غريزة حب الاستطلاع .. الضغط الذى يفرضه عليهن الخوف من مشكلات الجنس . ولا يوجد سبب معقول للشقاء والفراغ الذى تسببه العزوبة الدائمة لهؤلاء النسوة اللائى لم يقدر لهن

الزواج ، ولم يكن العنس متفشياً فى الماضى تفشيه فى هذه الأيام ، لأن عدد أعضاء الجنسين فى تلك الأيام كان متساويا تقريباً. ومما لاشك فيه ، أن وجود زيادة كبيرة فى عدد النساء فى كثير من البلدان ، يفسح المجال لمناقشات بالغة الأهمية تأييداً لإحداث تغييرات فى الناموس الأخلاقى المتعارف عليه .

والزواج هو النظام الوحيد الذى جرى عليه العرف واستقر ، فكان من المتسامح فيه باعتباره مخرجا ومتنفساً لمسائل الجنس . وهو يعانى فى ذاته من جمود هذا الناموس الأخلاقى . فالعقد النفسية التى تنشأ منذ الطفولة ، وتجارب الرجال مع البغايا والعاهرات ، وحالة الصد والنفور التى تنشأ لدى الفتيات حتى يحفظن شرفهن ، ويبقين على عفافهن . . كل هذه العوامل تتحالف لتقف صفاً واحداً دون السعادة فى الزواج . والفتاة التى تكون دوافعها الجنسية قوية ملحة وتدلهت فى الحب ، لاتتمكن — إذا كانت ذات تربية محافظة — من التمييز بين التجارب والصداقة الجدية مع رجل . . وبين مجرد الجاذبية والاندفاع تلبية لنداء الجنس . ومثل هذه الفتاة ، من اليسير أن تتزوج من أول رجل يوقظ حسها ووجدانها من الناحية الجنسية . . حتى إذا قدر لها أن ترتوى وتشبع جوعها إلى الجنس ، لاتلبث أن تكتشف أنها لاتتعلق بهذا الرجل ولا ترتبط معه بأية صلات مشتركة . . ولكن بعد أن يكون السيف قد سبق العذل . ذلك لأن تربيتها وثقافتها وتعاليمها ، تدعوها إلى الخجل بدون مادداع إلى ذلك ، كما أنها لاتكون على شىء من الثقافة

الجنسية . والمفروض أن يكون كل منهما قد استوعبها . وغالباً مايحدث الفشل الذريع فى الزواج ، نتيجة لهذا الجهل ، إنه يجعل الزواج خلواً من عنصر الارتواء الجنسى لكل من الزوجين ، فضلا عن أن التآلف العقلى و الانسجام البيولوجى يصبحان أمراً متعذراً .

إن المرأة لم تتعود الخوض بحرية فى المسائل الجنسية . . وكذلك لم يتعود الرجل ، إلا فى حديثه مع غيره من الرجال أو مع المومسات .. أما مع زوجته ، فانه ينصاع للخجل والضجر إذا ما أثيرت أكثر الأمور حيوية ، وأوثقها ارتباطاً بحياتهما المشتركة وقد ترقد الزوجة إلى جواره مستيقظة لا يغمض لها جفن ، غير راضية النفس ، لأنها لم ترتو بعد .. ولا تكاد تعرف ماتريد . وقد يدور بخلد الرجل – ولو فى طيف عابر ، لايلبث أن يصبح أمراً ملحاً – أن البغايا أكثر – من زوجته – منحاً واعطاء وإشباعا ، وأقدر على توفير الإرضاء والارتواء ، وهو يشعر باستنكار إزاء برود زوجته ، فى نفس اللحظة التى قد تعانى الزوجة فيها ألما مبرحا ، لعجز زوجها عن إشباع رغبتها الجنسية . . وهذا البؤس و الضغط والإحراج المتصل الحلقات ، إنما ينشأ نتيجة لسياسة الصمت والتورع والتعفف والحياء .

وهكذا نجد أن التقاليد الأخلاقية القديمة البالية ، تعمل – طيلة الطفولة وخلال المراهقة و الشباب – على تسميم الحب بالعبوس والخوف وسوء التفاهم المشترك من الطرفين ، وتأنيب الضمير ، والإجهاد العصبى ، مما يتسبب فى قيام فاصل بين الدافع البيولوجى و الحافز الروحى الباعث للحب المثالى ،

والذى يجعل الأول حيوانياً والآخر عميقاً . ومن الواجب أن لاتكون كل من الطبيعتين الحيوانية والروحية - فى حياتنا - فى حرب ، إذ ليس فى إحداهما مايتعارض مع الأخرى ، كما أن كلا منهما لا تستطيع أن تبلغ غايتها إلا باتحاد مع الأخرى . فأفضل الحب الذى ينشأ بين رجل وامرأة ، هو ما كان حراً من كل ضغط وخوف ، يمزج بين الجسم والعقل فى نسب متساوية ، ولايخشى المثالية لأن هناك أساساً بيولوجياً ، كما أنه لايرهب الأساس البدنى لأنه لايتعارض مع المثالية ، ومن ثم يجب أن يكون الحب شجرة ، جذورها متغلغلة فى باطن الأرض ، وفروعها ممتدة إلى السماء .

ولا يمكن للحب أن ينمو ويترعرع ، وهو محاط بالتحريم والهلع الزائف الناشىء عن التأنيب والصمت الرهيب . إن حب الرجل والمرأة ، وحب الوالدين لأطفالهما ، حقيقتان أساسيتان فى حياتنا العاطفية . وقد اعتادت التقاليد الأخلاقية المتعارف عليها أن تحط من قيمة أحدهما ، وأن ترفع من قيمة الآخر . ولكن الحقيقة أن حب الوالدين لأطفالهما قد تأثر بسبب الإساءة إلى الحب بين كل من الوالدين ، فان الأطفال — وهم ثمرة اللذة والمتعة المشتركة — يظفرون من الوالدين اللذين لايعانيان جوعا عاطفياً وظمأ جنسياً ، بحب أقوى وأسلم وأبسط مما يظفرون به من الوالدين اللذين يقاسيان الجوع والشوق .

●

الفصل التاسع عشر

مكان الجنس بين القيم البشرية

ان الكاتب الذى يتناول موضوعا يمت بصلة إلى الجنس ، يخشى دائما أن يتعرض للاتهام من هؤلاء الذين يعتقدون أن مثل هذه الموضوعات يجب الا تذكر علانية . هؤلاء الذين يؤيدون الحملات ضد الاتصال بالبغايا ، ويسنون التشريعات على أنها ضد تجارة الرقيق الأبيض ، وهى – فى الواقع – موجهة ضد العلاقات التى تقوم خارج نطاق الزواج .. هؤلاء الذين يشنون الحملات على النساء لارتدائهن الملابس القصيرة ، واستعمالهن المساحيق والأصباغ . . هؤلاء الذين يتلصصون على شواطىء البحار أملا فى ضبط « مايوهات » لا تتمشى مع الحشمة ولا تتفق مع الوقار . . مثل هؤلاء الناس ، لايستبعد أن يكون الواحد منهم من ضحايا الحرمان الجنسى .

غير أنه من المحتمل أنهم يعانون فى الواقع – بهذه الطريقة – أكثر مما يعانى الكتاب الذين يدعون إلى مزيد من الحرية الجنسية . فان التزمت الأخلاقى يعتبر عادة رد فعل للعواطف الزاخرة بالرغبات الجنسية المشبوبة .

والرجل الذى يعبر عن هذا التزمت يكون عادة قد امتلأ بصفة عامة بأفكار شريرة لا يجدر بمثله أن يفكر فيها . أفكار غير لائقة ، لا لأنها تتضمن معنى جنسيا ولكن لأن تأثير قواعد الأخلاق على الفكر قد جعله غير قادر على التفكير النظيف الشامل حول هذا الموضوع . اننى أتفق تماما مع الكنيسة فى الاعتقاد بأن الميل نحو الموضوعات الجنسية يعتبر شرا ، ولكنى لا أتفق مع الكنيسة على أن أفضل الوسائل لتجنب هذا الشر هو تفاديه .

ان الجنس حاجة طبيعية ، مثل الحاجة إلى الطعام والشراب . ونحن نؤاخذ الأكول النهم ، والمسرف فى الشراب ، نظراً لأن اهتمام كل منهما بطعامه وشرابه قد احتل من نشاطه وأفكاره وعواطفه أكثر مما ينبغى . وهذا الاهتمام له مكانه المقرر فى الحياة . ولكنا لا نؤاخذ رجلا على تمتعه بشهية طبيعية سليمة .. وقد اتجهت مبادىء إنكار الذات والتجرد والرهبانية إلى أنه من اللازم أن يخفض الرجل غذاءه إلى أدنى حد ممكن ، وأن يقتصر على القدر اللازم فقط لاستمرار الحياة . غير أن هذه النظرة ليست شائعة ولا عامة ، وفى الإمكان تجاهلها .

ويبدو أن « البيوريتان » - حين دعوا إلى تجنب ملذات الجنس - لم ينجحوا فى إخضاع الجانب المادى البحت من طبيعتنا البشرية ، إذ أن ما استبعدوه من الجنس ، أضافوه إلى الشراهة فى تناول الطعام . بينما تعتبر الشراهة فى نظر الكنيسة الكاثوليكية ، إحدى الخطايا السبع الفظيعة ،

التى وصف « دانتى » من يرتكبونها ، بأن أعمق مناطق جهنم ستكون قرارهم وبئس المهاد . غير أن هذه خطيئة مبهمة بعض الشىء ، نظرا لأنه من الصعب القول بأن الذنب يبدأ عندما تتوقف الرغبة الطبيعية فى الاهتمام بالطعام .

إننا نعرف أن شخصا ما يتصف بالشره ، عندما نشاهده يسرف فى الاقبال على الطعام ، وعلى الرغم من أنه قد ينظر اليه بشىء من الاحتقار ، فانه لا يتعرض لمؤاخذة كبيرة على هذا العمل . وعلى الرغم من ذلك فان الإقبال الشديد على الطعام بلا مبرر ، أمر نادر الحدوث بين هؤلاء الذين لم يقاسوا مرارة الحاجة مطلقا . إن معظم الناس يتناولون وجبات طعامهم ، ثم يشغلون بأشياء أخرى ، إلى أن يحين موعد الوجبة التالية . ومن الناحية الأخرى ، فإن هؤلاء الذين اعتنقوا فلسفة الزهد والتصوف ، يحرمون أنفسهم من كل شىء إلا الحد الأدنى للطعام . وهم يشعرون بالحرمان لدى رؤيتهم الولائم والموائد العامرة بأطايب الطعام والشراب ، ويمنون النفس بأشهى ألوان الطعام وألذ المأكولات . ومكتشفو المناطق القطبيــة الذين يضطرون إلى الاكتفاء فى طعامهم بدهون الحوت يقضون أيامهم فى تخيل الغذاء الذى يتصورون أنهم سيتناولونه فى « كارلتون أوتيل » بمجرد عودتهم إلى أرض الوطن .

توحى مثل هذه الحقائق بأنه إذا لم يكن الجنس مطلباً ملحاً دافقا ، فيجب أن ينظر إليه رجال الأخلاق بنفس النظرة التى ينظرون بها الآن

ـ وليس فى الماضى ـ إلى الطعام . . فإن الحاجة الجنسية طبيعة بشرية ، مثل الحاجة إلى الطعام وإلى الشراب . حقا ، ان الرجال يستطيعون أن يعيشوا بدون ممارسة المسائل الجنسية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعيشوا بدون تناول طعام أو شراب . ولكن الرغبة فى الأمور الجنسية ، من الناحية النفسية ، تشبه ـ تمام الشبه ـ الرغبة فى تناول الطعام والشراب وهى تتضاعف بشكل كبير ، بالامتناع عن ممارستها أو بالاستغناء عنها ، ويقل أثرها بصفة مؤقتة بالاشباع . وعندما تلح على المرء،فإنها تطغى على كل شىء فى ادراكه ، فتتوارى كافة الرغبات الأخرى ، ويعمد الرجل إلى إتيان أعمال يظهر بعد ذلك أنها غير سليمة . . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الرغبة ينميها الحرمان والمنع بشكل كبير .

ولقد عرفت أطفالا يرفضون تناول التفاح عندما يقدم إليهم فى وجبة طعام الافطار ، ثم يخرجون إلى البستان مباشرة ليسرقوه ، على الرغم من أن التفاح الذى يقدم فى الافطار قد يكون أكثر نضجا من التفاح المسروق . . وقد أدت التعاليم المسيحية والسلطات المسيحية إلى زيادة الاهتمام بالمسائل الجنسية ، فان الجيل الذى يكف عن الاعتقاد فى التعاليم القديمة ، ويتحرر من القيود يكون معرضا لأن يستجيب لنداء الحرية الجنسية إلى درجة أبعد مما هو متوقع ممن لا تتأثر آراؤهم بصدد الجنس بالتعاليم التى يغلب عليها طابع الخرافة . وليس مثل الحرية شىء يمكن أن يمنع أى ميل نحو الأمور الجنسية بلا مبرر . ولكن الحرية نفسها لن يكون لها هذا التأثير ، إلا إذا أصبحت

شيئاً مألوفا لدى الناس ، وإلا إذا صاحبتها درجة معقولة من الثقافة الجنسية .

وأكرر ، باقصى قدر من التوكيد ، أن أى اهتمام لا يوجه إلى هذا الموضوع بما يستحقه من عناية ، يعتبر خطراً وشراً وأعتقد أن هذا الشر قد انتشر على نطاق واسع فى عصرنا الحاضر . إن الشخص الأكول النهم ، والشخص المترف ، والشخص المتعبد الزاهد . . كلهم أشخاص تتحدد آفاقهم برغباتهم الخاصة ، إما عن طريق إشباع هذه الرغبات ، أوعن طريق الاستغناء عنها .. والانسان الذى يتمتع بصحة عقلية وجسدية جيدة ، ويعتبر صحيح الجسم والعقل ، لا يجعل رغباته مقصورة ومركزة حول ذاته . إنه ينظر حوله إلى العالم ، فيجد فيه أشياء تبدو جديرة باهتمامه . والاهتمام الشديد بالذات ليس - كما افترض البعض - الوضع الطبيعى للرجل المثقف ، وإنما هو مرض نشأ - على الأغلب - عن نوع من تعارض الدوافع الطبيعية . فالشخص المترف الذى يغرق فى أفكار عن السعادة الجنسية إنما يفعل ذلك - بوجه عام - نتيجة للحرمان . . مثله مثل الرجل الذى يختزن الطعام لأنه عاش فترة فى حرمان ومجاعة .

ولست أقترح أن تكون هناك قواعد للأخلاق أو كبح جماح النفس - فى ميدان الأمور الجنسية - أكثر مما هو موجود فى ميدان الطعام . ولدينا ، فيما يتعلق بالطعام ، أنواع ثلاثة من القيود ، هى قيود القانون ، وقيود آداب السلوك ، وقيود الصحة .

إننا نعتبر سرقة الطعام عملا خاطئا ، وكذلك التهام ما يزيد عن نصيبنا

فى وجبة مشتركة قد يضر بمن يؤاكلوننا . . أو أننا نتناول الطعام بطرق تجعلنا نقع فريسة للأمراض . والقيود التى من هذا النوع ضرورية فيما يتعلق بالامور الجنسية ، غير أن هذه الامور أكثر تعقيداً من الأكل ، وتتطلب قدراً أكبر من ضبط النفس . . وإلى جانب ذلك، فإنه إذا لم يكن من حق أى إنسان أن يفرض ملكيته على إنسان آخر ، فإن الشىء المقابل للسرقة ليس هو الزنا ، وإنما الاغتصاب . ومن الواضح أنه عمل يجب أن يحرمه القانون . والمسائل التى تتعلق بالصحة ، تتناول طبعا الأمراض السرية، وهو موضوع عالجناه عند الكلام على « البغاء » . ومن الواضح أن اضمحلال البغاء المحترف هو أحسن طريقة بعد الطب ـ للحد من هذا الشر . والإقلال من البغاء الاحترافى ، والحد منه ، هو أفضل ما يمكن الذهاب إليه لإتاحة قدر أكبر من الحرية بين الشبان الناشئين فى عصرنا الحاضر .

* * *

إن أية فلسفة جنسية معقولة ، لا يمكن أن تنظر إلى الجنس باعتباره مجرد جوع طبيعى، ومصدرا محتمل الخطر . إن كل هذه الآراء جديرة بالاهتمام، ولكن من المهم أيضاً أن نتذكر أن الجنس مرتبط ببعض الحسنات الكبيرة فى الحياة الإنسانية ، والعناصر الثلاثة التى يبدو أنها لافتة للنظر هى : الحب الشاعرى ، والسعادة فى الزواج ، والفن .

وقد تكلمنا فيما سبق عن الحب الشاعرى ، وعن الزواج . أما الفن ،

فقد اعتبره البعض منفصلا عن الأمور الجنسية . ولـكن هذا الرأى ليس له إلا عدد قليل من المؤيدين ، ويقل هذا العدد الآن عما كان الحال عليه من قبل . ومن الواضح تماما أن النزوع نحو أى نوع من جمال الخلق ، مرتبط من الناحية السيكولوجية بالحب والغرام ، ارتباطاً لا يتحتم أن يكون مباشراً أو واضحاً ، ولـكنه عميق على أية حال . ولـكى يؤدى الدافع الجنسى إلى التعبير الجنسى لابد من توافر عدد من الشروط . فيجب أن تـكون هناك قدرة فنية . ولـكن القدرة الفنية - حتى عند شعوب معينة - تبدو كما لو كانت شائعة فى وقت معين ، وغير شائعة فى وقت آخر . ومن هـذا يبدو من الأسلم أن نستخلص أن البيئة - وما يقابلها من المهارة المحلية - تلعب دورا كبيرا فى النزوع الفنى . فيجب أن يكون هناك قدر معين من الحرية . . ولا نقصد من الفن هنا ، ذلك النوع الذى يتضمن مكافأة الفنان ، وإنما النوع الذى لا يكون فيه إجبار ولا إكراه أو إيحاء بحكم عادات تجعل الفنان يتحول إلى شخص تـكون أفـكاره وأذواقه شيئاً شائعاً ، أو شخص تنقصه الثقافة .

عندما أودع يوليوس الثانى « ميكائيل أنجلو » السجن ، لم يتدخل بأى حال فى هذا النوع من الحرية الذى يحتاج إليه الفنان . لقد سجنه ، لأنه اعتبره رجلا هاما ، وهو لا يتسامح فى أية إهانة ولو طفيفة إلى شخصه من أى مخلوق تقل درجته عن البابوية . وعلى أية حال ، فعندما يضطر الفنان إلى الخضوع والتزلف لأصحاب الأعمال الأغنياء أو لحـكام المدينة ، وأن يتجه بإنتاجه وفقاً لأهوائهم ، فإن حريته الفنية تغدو مفقودة . . وعندما يضطر

— تحت ضغط الخوف من الاضطهاد الاجتماعى والاقتصادى — إلى أن يقنع بالعيش فى ظل زواج لايطيق استمرار بقائه ، فانه يصبح محروماً من الطاقة التى يتطلبها الخلق الفنى . والمجتمعات التى كانت متمسكة بالتقاليد الاخلاقية لم تنتج فناً عظيما .

* * *

إن أمريكا تستورد ، فى الوقت الحاضر ، معظم المهارة الفنية من أوروبا حيث تتباطأ الحرية فى الزوال . ولكن « تأمرك » أوروبا ، يجعل من الضرورى التحول إلى الزنوج . فان الوطن الأخير للفن ، كما يبدو ، يوجد فى مكان ما فى أعالى (الكونجو) إن لم يكن فى أعالى (التبت) ، ولكن اضمحلاله النهائى لن يتأخر طويلا ، طالما أن المكافآت التى أظهرت أمريكا استعدادها لإغداقها على الفنانين الأجانب من شانها أن تعجل بموتهم الأدبى والفنى . فقد كان الفن فى الماضى يرتكز على أسس شعبية ، وكان هذا يعتمد على الاستمتاع بالحياة . والاستمتاع بالحياة — بدوره — يقوم على قدر معين من الحرية والثبات ، فيما يتعلق بالامور الجنسية . وحيثما يحجر على الابتكار الفنى ، لايبقى للفنان سوى العمل فقط . وإذا أدى العمل بغرض الواجب فقط ، فلن ينتج عن ذلك شىء جدير بالاهتمام .

ولا يوجد رجل متمدن أو متوحش — ممن سمعت عنهم — يشبع غريزته بمجرد العمل الجنسى . فإذا ما كان الدافع الذى يؤدى إلى العمل قد أشبع ،

فيجب أن يكون هناك عشق وغرام ، يجب أن يكون هناك حب ، يجب أن تكون هناك زمالة وصداقة ومودة . . وبدون هذه العناصر والمقومات ، يكون الجوع البدنى ميسور الإشباع مؤقتاً ، بينما يظل الجوع العقلى بلا ارتواء ولايمكنه الحصول على إشباع عميق . إن الحرية الجنسية التى يحتاج إليها الفنان هى حريته فى أن يحب ، وليس فى أن يرضى حاجته البدنية مع امرأة غير معروفة . . والحرية فى الحب هى — فوق كل شىء — أمر لا يقره رجال الأخلاق المتزمتون .

وإذا كان للفن أن يزدهر وينتعش بعد أن « يتأمرك » العالم ، فسيصبح من الضرورى أن تتغير أمريكا ، وأن يصبح رجال الأخلاق فيها أقل تزمتا وأن يكون اللا أخلاقيون أقل إباحية ، وأن يتحقق كل من الفريقين — فى كلمة واحدة — من القيم العليا التى يتيحها الجنس ، وإدراك أن اللذة والسرور قد يكون لهما قيمة أكبر من رصيد المرء فى المصرف .

ولا يوجد فى أمريكا شىء أكثر ايلاما بالنسبة للزائر الغريب عنها ، من انعدام البهجة والسرور . . فاللهو هناك يشوبه الكثير من المبالغة ، ولا يوجد إلا فى الحفلات الصاخبة . . إنه سرور عابر لدقائق معدودات ، سرعان مايدركه النسيان ، وليس تعبيراً بهيجاً عن النفس . إن الرجال الذين كان آباؤهم يرقصون على نغمات الأرغن فى البلقان وفى القرى البولندية ، يجلسون طوال أوقاتهم مسمرين إلى مكاتبهم ، وسط آلات الكتابة والتليفونات ، وقد ارتسمت على وجوههم أسارير الجد والاهتمام . . حتى إذا

جاء المساء ، هربوا إلى الشراب وإلى نوع جديد من الجلبة والضجيج ، وتصوروا أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم السعادة ، بينما هم فى الواقع لايجدون إلا نسيانا غير كامل للشعور بالرتابة التى ليس من ورائها أى هدف أو أمل ولمبدئهم الذى يقول إن المال يجلب المال وينميه ، وذلك عن طريق أجسام الناس الذين باعوا أرواحهم للعبودية والرق .

وليس فى نيتى أن أقترح مالا أومن به شخصياً ، من أن خير مافى الحياة الانسانية هو ما كان متعلقاً بالأمور الجنسية . وأنا لا أعتبر العلم نظريا كان أم عملياً مرتبطا بالجنس ولا بأى نوع معين من ألوان النشاط الاجتماعى أو السياسى الهام . . فإن الدوافع التى تؤدى إلى الرغبات المعقدة لحياة البالغين يمكن تبويبها تحت عناوين بسيطة . ويبدو لى أن القوة والجنس والأبوة هى أصل معظم الأشياء التى يفعلها الإنسان ، فيما عدا ماهو ضرورى لحفظ النفس . ومن بين هذه العناصر الثلاثة ، نجد أن القوة تبدأ أولا ، وتنتهى آخرا . فما ان تنشأ لدى الطفل قوة قليلة، حتى تسيطر عليه الرغبة فى الحصول على المزيد من الأشياء . . ويبدو حقا أن الجزء الأكبر من نشاطه ينبثق عن هذه الرغبة . أما الرغبة الأخرى التى تسيطر عليه ، فهى الغرور ، أو الشوق إلى أن يمتدحه الآخرون ، والخوف من أن يلومه الآخرون أو يتجاهلوه . إن الغرور والزهو والخيلاء هى التى تجعله كائنا اجتماعيا ، وتضفى عليه الفضائل اللازمة للمعيشة فى المجتمع . والغرور والزهو حافزان وثيقا الصلة بالجنس ، على الرغم من أنهما منفصلان عنه من الناحية النظرية . أما القوة ، فهى

مرتبطة ارتباطا ضئيلا بالجنس . وأعتقد أن حب القوة — مثل الزهو والخيلاء على الأقل — هو الذى يحفز الطفل لأن يؤدى واجباته المدرسية ، وينمى عضلاته . كما أعتقد أنه يجب اعتبار حب الاستطلاع والبحث عن المعرفة ، كفرع من فروع القوة . وإذا كانت المعرفة من القوة ، فيكون حب المعرفة بالتالى هو حب للقوة . وعلى هذا فيجب أن ننظر إلى العلم — فيما عدا بعض فروع معينة منه كالبيولوجيا والفسيولوجيا — على أساس أنه خارج عن نطاق العواطف الجنسية . ولو أن الامبراطور فردريك الثانى كان على قيد الحياة لأمر بأن يخصى أحد علماء الرياضيات وأحد كبار المؤلفين الموسيقيين ، لتسنى ملاحظة آثار ذلك على أعمالهم بعد ذلك . ويجب أن نذكر أن عمل الأول سيكون إنتاجاً لا بأس به ، وأن عمل الثانى سيكون صفرا . وهكذا نرى أن البحث عن المعرفة هو أحد العوامل الكبيرة القيمة فى الطبيعة البشرية . وهو مجال هام للنشاط تخلص — إذا ما كنا صائبين فى رأينا — من سيطرة الجنس .

والقوة — إذا كان فهمنا للكلمة بمعناها الواسع — تعتبر أيضاً الباعث على أغلب النشاط السياسى . ولا أعنى بذلك أن رجل السياسة العظيم لا يهتم بالصالح العام ، بل إننى على العكس — أعتقد انه رجل قد تملك مشاعره الاحساس بالأبوة. ولكنه خليق إذا لم يتوفر له حب القوة بدرجة معقولة — بأن يفشل فى الحصول على العناصر الضرورية للنجاح فى أى عمل سياسى . لأنه يكون محروماً من الطموح الشخصى الذى يوفر له الطاقة

و القدرة على إتمام الخير الذى يهدف إلى تحقيقه .

وفى كل أعمال السياسة قوتان ، فى كل منهما خير وشر ، وهما : الباعث الاقتصادى ، وحب القوة . وتعتبر أية محاولة لتفسير السياسة على أساس مذهب « فرويد » ، فى رأيي ، خطأ كبيرا . وإذا صح هذا ، فإن معظم الرجال العظماء ، ماعدا الفنانين ، كانوا يصدرون فى أعمالهم الهامة عن بواعث غير مرتبطة بالجنس . فإن الرغبة فى فهم العالم ، والرغبة فى إصلاحه هما المحركان اللذان يدفعان عجلة التقدم .

●

الفصل العشرون

ختام

لقد أدت المناقشات والحجج التى أدلينا بها إلى نتائج معينة ، بعضها تاريخى والآخر أخلاقى . فمن الناحية التاريخية ، وجدنا أن أخلاقيات الجنس — كما هى فى المجتمعات المتمدينة — قد اشتقت من مصدرين مختلفين تمام الاختلاف : فهى ترجع — من ناحية — إلى رغبة أكيدة فى الأبوة ، وترجع — من ناحية أخرى — إلى اعتقاد دينى بأن الجنس أمر ينطوى على الشر إلا فيما يتعلق بحفظ النسل .

ولقد كانت الأخلاق فيما قبل عصور المسيحية — وفى الشرق الأقصى حتى يومنا الحاضر — ترجع إلى المصدر الأول ، اللهم إلا فى الهند وإيران ، اللتين كانتا المركزين اللذين يبدو أن مبادىء الزهد والتصوف والرهبانية وإنكار الذات قد انتشرت منهما . ولم تكن الرغبة فى التأكد من صحة النسب فى الأبوة موجودة بالطبع فى هذه الأجناس المتأخرة ، التى كانت تجهل أن الذكر له أى دخل فى تعاقب الأجيال . وعلى الرغم من أن غيرة

الذكور فيما بينهم وضعت بعض القيود على حرية النساء ، فإن النساء — على العموم — أكثر حرية اليوم مما كن فى المجتمعات الأبوية ، فى العصور السحيقة . ومن الواضح أنه فى مرحلة الانتقال ، لا بد أن يكون قد حدث قدر كبير من الاحتكاك، فقد وجد أن القيود التى فرضت على حرية النساء قد اعتبرت ضرورية فى نظر الرجال الذين كانوا آباء لأطفالهم. وقد فرضت فى هذه المرحلة ، القيود الأخلاقية الجنسية على النساء فقط ، فلم يكن فى وسع الرجل أن يقترف الزنا مع امرأة متزوجة، إلا إذا كان حرا خاليا من رباط الزوجية.

ومع المسيحية ، دخل باعث جديد على الزواج ، هو تجنب الخطيئة . وأصبح المستوى الأخلاقى للرجال — من الناحية النظرية — هو نفسه للنساء على الرغم من أن الصعوبة فى فرضه على الرجال من الناحية العملية قد أدت دائماً إلى تساهل أكبر . وقد كان للمستوى الأخلاقى فى مبدأ الأمر غرض بيولوجى بحت ، هو التأكد من أن الصغار يجب أن تتوفر لهم الحماية والرعاية من والديهم معا — خلال سنيهم الأولى — وليس من أحد الوالدين دون الآخر . وقد اختفى هذا الغرض — نظريا — فى المبادىء المسيحية ، بالرغم من أن الحال ليس كذلك من الناحية العملية فى المسيحية.

وقد ظهر فى الأزمنة الحديثة ، مايدل على أن مستوى الأخلاق الجنسية — فى المسيحية وما قبل المسيحية — يمر بمرحلة من التغيير فلم يعد للجانب المسيحى نفس السيطرة والقوة اللتين كانتا له من قبل، نظرا لتخاذل التطرف فى التمسك بالدين ، وتناقص قوة الإيمان حتى بين هؤلاء الذين ما زالوا

يعتنقون المسيحية . ولا يعتقد الرجال والنساء الذين ولدوا خلال هذا القرن الحالى ، أن التناسل يعتبر خطيئة ، بالرغم من أنهم يميلون بصفة لاشعورية إلى الاحتفاظ بالاتجاهات القديمة . . أما فيما يتعلق بمبادىء الأخلاق الجنسية قبل المسيحية ، فإنها قد تغيرت — ولا تزال فى طريقها للتغير — بأكثر من عامل واحد . وأول هذه العوامل هو موانع الحمل ، التى من شأنها أن تزيد احتمال منع الاتصال الجنسى من أن يؤدى إلى الحمل . وهى بهذا تتيح للنساء — إذا لم يكن متزوجات — أن يتجنبن إنجاب الأطفال تماما . . كما تتيح لهن إذا كن متزوجات . أن ينجبن أطفالا بواسطة أزواجهن فقط ، بدون أن يجدن من الضرورى فى أى من الحالتين السابقتين أن يكن طاهرات الذيول . غير أن هذه العملية لم تكتمل بعد ، نظرا لأن موانع الحمل لا يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كاملا . ولكن على المرء أن يفترض — كما أعتقد — أنها ستصبح كذلك قبل مضى وقت طويل . وفى تلك الحالة ، سيصبح التأكد من صحة الأبوة أمرا ممكنا ، بدون أن يتحتم على النساء أن يتجنبن ممارسة أى اتصال جنسى خارج نطاق الزواج .

ولقد كان فى استطاعة النساء دائما ، ومنذ أقدم العصور ، أن يخدعن أزواجهن . والباعث على الخداع أو الخيانة ، يتضاءل كثيرا عندما تكون المسألة هى مجرد : « من الذى سيكون أبا للطفل ؟ » عنها عندما تكون المشكلة هى : « هل سيكون هناك اتصال جنسى مع شخص تتدله المرأة فى حبه حباً عاطفياً ؟ » وقد يفترض المرء تبعا لذلك ، أن الخيانة بالنسبة لمسألة

الابوة — على الرغم من أنها قد تحدث من وقت لآخر — قد تغدو أقل حدوثا من الخيانة بالنسبة للزنا ، كما كانت الحال فى الماضى . ومن المستحيل أيضاً أن تتكيف غيرة الازواج ، بموجب عرف جديد ، طبقا للوضع الجديد ، وأن تنبعث فقط عندما تميل الزوجات إلى اختيار رجل آخر كوالد لأطفالهن . وقد كان الرجال فى الشرق يتسامحون فى الحريات بالنسبة للمخصيين ، وهو امر يرفضه معظم الازواج الاوروبيين . ولقد كان التسامح مع الخصيان قائما على انهم كانوا لا يثيرون ادنى شك فيما يتعلق بالأبوة . ونفس هذا النوع من التسامح ، قد يسهل امتداده بسهولة حتى يشمل الحريات التى تصحب استعمال موانع الحمل .

وعلى هذا ، فالاسرة ذات الزوجين (رجل واحد وامرأة واحدة فقط) قد تعيش فى المستقبل دون ان تبدى مطالب كبيرة نحو كبح جماح النساء ، كما كانت الحال فى الماضى . وهناك عامل ثان — على اية حال — يتعلق بالتغير الذى سيصيب اخلاقيات الجنس ، وهو خليق بأن يحدث نتائج بعيدة الأثر . هذا العامل هو ازدياد تدخل الدولة فى تعليم وتهذيب الاطفال والمحافظة عليهم والعناية بهم . هذا العنصر يؤثر على الاخص فى الطبقات الكادحة ، ولكنهم قبل كل شىء يكونون اغلبية السكان . ومن المحتمل جداً أن استبدال الاب بالدولة — وهو مايجرى تدريجيا — سيمتد بصفة حتمية حتى يشمل كافة السكان . وقد كان الدور الذى يلعبه الاب فى اسرات الحيوانات — وفى الاسرات الآدمية — هو توفير الحماية والرعاية

للأسرة . أما فى المجتمعات المتمدينة ، فإن البوليس هو الذى يوفر هذه الحماية . . وقد تكون رعاية الدولة عامة ، أو تقتصر على سكان الأحياء الفقيرة . وهى فى الحالة الأخيرة لاتخدم أى غرض واضح من وجهة بحثنا . أما فيما يختص بالأم ، فهناك احتمالان : فهى قد تستمر فى أداء عملها العادى، وتعهد برعاية أطفالها إلى معاهد معينة متخصصة . أو قد تدفع لها الدولة أجرا - إذا ما نص القانون على ذلك - لكى تعتنى بأطفالها وهم بعد فى مرحلة الطفولة .

وإذا ما طبقت الطريقة الأخيرة ، فإنها قد تستعمل لتدعيم الأخلاق التقليدية ، فلا يدفع أجر للمرأة التى يثبت أنها غير شريفة. وبذلك لايتسنى لها أن تقيم أود صغارها إلا إذا ذهبت لتعمل . وسيكون من اللازم عند ذلك أن تعهد بصغارها إلى معهد أو مدرسة معينة . وقد يبدو من المحتمل - بناء على ذلك - أن يؤدى تفاعل القوى الاقتصادية إلى استبعاد الأب ، كما قد يؤدى إلى حد كبير أيضا إلى استبعاد الام ، فيما يتعلق برعاية الاطفال الذين لا يكون أهلهم على جانب من الرخاء . وإذا ما تم ذلك ، فان كافة الاسباب التقليدية للتقاليد الاخلاقية ستكون قد تلاشت ، وسيجرى البحث عن أسباب جديدة لمبادىء أخلاقية جديدة .

* * *

إن مسألة تفكك الأسرة ، إذا قدر لها أن تحدث ، لن تكون -

فى تفكيرى - مدعاة للسرور والبهجة . ذلك لأن محبة الوالدين هامة بالنسبة إلى الاطفال ، ومن المؤكد أن معاهد تربية الاطفال ستصبح - إذا ما وجدت على نطاق واسع - رسمية جدا ، وربما يغلب عليها طابع الخشونة . وعندما تزال التأثيرات المتباينة فى مختلف البيئات المنزلية ، فسيكون هناك درجة مخيفة من التشابه والرسمية . وما لم تنشأ من قبل حكومة عالمية ، فان أطفال مختلف الدول سيلقون لونا خطيراً من الآراء السياسية ، يجعل من المرجح أنهم سيساقون إلى أن يدمر بعضهم البعض عندما يشبون عن الطوق . وتنشأ الحاجة إلى حكومة عالمية ايضا بالنسبة إلى السكان ، نظرا لان الوطنيين فى مختلف ارجاء العالم سينتهزون فرصة عدم وجود مثل هذه الحكومة العالمية، ليكون لديهم باعث لتشجيع زيادة النسل زيادة ضخمة عن الحد المطلوب ، طلبا للغلبة والسيطرة . وتكون الطريقة الوحيدة الباقية ، مع تقدم علوم الطب والصحة ، للتخلص من الكميات الزائدة من الرصيد البشرى ، هى ... الحرب .

وبينما نجد ان المشكلات الاجتماعية غالباً ما تكون صعبة ومعقدة ، فان المشكلات الشخصية تعتبر - فى رأيى - متناهية فى البساطة . ويعتبر المذهب القائل بأن هناك شيئا من الخطيئة والاثم حول المسائل الجنسية ، واحدا من العوامل التى أدت إلى احداث ضرر لم يتحدث عنه احد بالنسبة إلى اخلاق الفرد ، وهو ضرر يبدأ فى بواكير الطفولة ويستمر ما استمرت حياة الإنسان . وبزج الحب الجنسى فى سجن القيود ، تكون التقاليد

الأخلاقية قد فعلت الكثير لسجن كافة الأشكال الأخرى للشعور بالصداقة ، ولجعل الرجال أقل كرما وسماحة وعطفا ، وأكثر أنانية وتشبثا بحقوقهم ، وأشد قسوة . ومهما تصبح الأمور الجنسية مقبولة فى جملتها ، فمن الواجب أن تخلو من الخرافات ، وأن تتوافر لها أسس ظاهرة معترف بها .

إن الجنس لايمكن أن يستغنى عن الأخلاق ، تماما كما لايمكن للتجارة ولا الرياضة ولا لأى بحث عملى أو فرع آخر من فروع النشاط الإنسانى أن يستغنى عن الأخلاق . ولكن من الممكن فقط أن نستغنى عن مبادىء أخلاقية تقوم على نواه وأوامر قديمة نادى بها أشخاص غير مثقفين ، فى مجتمع يختلف تماما عن مجتمعنا . وفى الجنس. كما فى الاقتصاد والسياسة لاتزال مبادىء الأخلاق ترزح تحت المخاوف التى جعلتها الاكتشافات والاختراعات الحديثة أمرا غير معقول . وقد يعزى نقص الفائدة التى تشتق من هذه الاختراعات ، بصفه عامة ، إلى الفشل فى التكييف النفسى بالنسبة لها .

والواقع أن الانتقال من النظام القديم إلى النظام الجديد ، له صعوباته الخاصة ، كما يحدث فى كل انتقال آخر . وهؤلاء الذين يؤيدون أى تجديد فى النظم الأخلاقية يتعرضون للاتهام بتهم مختلفة كما اتهم اتباع سقراط — من قبل — بأنهم مفسدون للشباب . وهذا الاتهام لاسند له مطلقا وكل من يعرفون الشرق الاسلامى ، يقررون أن هؤلاء الذين كفوا عن الاعتقاد فى ضرورة تأدية الصلاة خمس مرات فى اليوم ، قد كفوا أيضا عن احترام قواعد أخلاقية أخرى مما نعتبرها نحن على جانب كبير من الأهمية . إن

الرجل الذي يرى أو يقترح إجراء أي تغيير فى الأخلاق الجنسية، معرض على الأخص لأن يساء تأويل قصده بهذه الطريقة . وأنا شخصيا أوقن بأنني قلت أشياء قد يسيء بعض القراء تأويلها .

إن القاعدة العامة التي تبنى عليها المبادىء الأخلاقية الجديدة ، والتي بموجبها تختلف عن الأخلاق التقليدية للبيوريتانية ، هي أننا نعتقد أن الغريزة يجب أن تدرب وتروض أكثر مما يجب أن تكبت أو تقيد . هذا الرأي إذا ما صغناه فى هذه القواعد العامة ، من المحتمل أن ينال قبولا واستحسانا بما يشبه الاجماع بين رجال ونساء العصر الحديث ، ولكنه يصير نافذا بكليته إذا ماقوبل بما يتضمنه من أسباب ، وطبق منذ السنوات الأولى . والغريزة إذا كبتت أكثر مما تروض ـ خلال سنوات الطفولة ـ فإن النتيجة قد تحتم وجوب الاستمرار فى كبتها الى حد ما خلال سنوات العمر التالية ، لأنها عندئذ تكون قد أخذت أشكالا غير مرغوب فيها ، نتيجة لكبتها فى السنوات الأولى للطفولة .

إن الاخلاق التي يجب أن أدافع عنها لاتتكون من مجرد قولي للبالغين من المراهقين وغيرهم من سائر الناس : اتبعوا حوافزكم ودوافعكم ، وافعلوا ماشئتم ! ، إذ يجب أن تكون هناك درجة من الثبات والاحتفاظ بالمبادىء والمثل فى الحياة ،ويجب أن تبذل مجهودات متواصلة توجه نحو غايات لا ينتج عنها فوائد مباشرة ولا يتحتم أن تكون مشوقة فى كل لحظة .يجب أن يكون هناك اعتبار للآخرين ،ويجب أن تكون هناك نماذج أو حدود

معينة للخلق القويم . وعلى أية حال ، فلا ينبغى لى أن أعتبر ضبط النفس غاية فى حد ذاته . وأتمنى أن تكون نظمنا وعاداتنا الاخلاقية ، مبنية على الاقلال من الحاجة إلى ضبط النفس إلى أقصى مايستطاع . إن فائدة ضبط النفس تشبه فائدة « الفرامل » فى القطار فهو مفيد عندما تجد نفسك سائرا فى تجاه خاطىء ، ولكنه ضار ضرراً تاما إذا استعمل وأنت سائر فى الاتجاه السليم . ولا يستطيع أحد أن يصر على أنه ينبغى أن يسير القطار دائما وفرامله مربوطة . وكذلك عادة ضبط النفس ، لها نفس الاثر البالغ الضرر على الطاقة والحيوية والقدارت الميسرة للنشاط المثمر المفيد . ويسبب ضبط النفس لهذه الطاقة والحيوية أن تضيع وتهلك بسبب صراع داخلى ، بدلا من أن تنطلق إلى نشاط خارجى . وهى بهذا الاعتبار تعتبر شيئاً يدعو للأسف ، على الرغم من أنها قد تكون ضرورية .

والدرجة التى يكون بها ضبط النفس لازما فى الحياة ، تعتمد على كيفية معالجة الغريزة منذ نعومة الاظفار . والغرائز ، كما توجد لدى الاطفال ، قد تقود إلى أوجه من النشاط مفيدة ، او قد تؤدى إلى ضرر ، تماما مثل البخار فى حالة قطار السكة الحديدية . فالبخار قد يدفع القطار قدما نحو غايته ، وقد يقذف بالقاطرة إلى خارج الخط الحديدى فيؤدى إلى كارثة .

إن وظيفة التعليم هى إرشاد الغريزة إلى الاتجاهات التى تتحول عندها إلى نشاط مفيد وتفادى تركها إلى الاتجاهات الضارة . وإذا ما تم القيام بهذا العمل بنجاح تام فى بواكير الطفولة ، فسوف يصبح من الممكن

للرجل أو المرأة — كقاعدة عامة — ان يعيش كلاهما حياة نافعة، بدون ما حاجة إلى استخدام ضبط النفس الصارم ، الا فى حالات الازمات القليلة النادرة. وإذا كان التعليم فى مراحل الطفولة المبكرة — من الناحية الأخرى — غير خالص من عنت الارهاق والكبت ومطاردة الغريزة ، فإن الأعمال التى ستمليها الغريزة — فيما يستجد من سنى العمر — تكون ضارة نسبيا ، وعندئذ ينبغى أن تكبح باستمرار عن طريق ضبط النفس .

هذه الاعتبارات العامة تنطبق بدرجة غريبة على الدوافع الجنسية ، وذلك نظرا لقوتها الضخمة ، وكذلك نظرا لأن الأخلاق التقليدية قد جعلت لها هذا الطابع الغريب . ويميل أغلب رجال الأخلاق القدامى إلى الاعتقاد بأنه إذا لم تراجع دوافعنا الجنسية بدقة ، فإنها قد تصبح تافهة جامحة مستهجنة . وأنا أعتقد أن هذا الرأى مشتق من ملاحظة هؤلاء الذين اكتسبوا المشاعر والعواطف الطبيعية المعتادة منذ نعومة أظفارهم ، ثم حاولوا مرات متعددة أن يتجاهلوا ذلك لأن مايسمى بالضمير — وهو ما يعبر عنه بعدم التبرير أو عدم التقبل اللاشعورى للقواعد والمبادىء التى لقنت منذ الصغر — يجعل الرجال يشعرون بأن ماتنهى العادات عنه إنما هو خطأ . وهذا الشعور قد يستمر ، على الرغم من الاقتناع العقلى بعكسه . فيؤدى هذا إلى قيام شخصية غير متكاملة ، منقسمة على نفسها ، لا تستطيع الغريزة والعقل فيها أن يسيرا جنبا إلى جنب . . على أن الغريزة فى هذه الحالة تكون قد أصبحت تافهة ، كما أصبح العقل ناقصاً .

ويجد المرء فى العالم الحديث ، درجات متباينة من الثورة على التعليم التقليدى . أعمها وأكثرها شيوعا هى ثورة الرجل الذى يعترف ذكاؤه بحقيقة المبادىء الأخلاقية التى تعلمها فى الصغر ، كما يعترف فى الوقت ذاته — بأنها لا تمت بصلة إلى الواقع فى كثير أو قليل ، وأنه لم يؤت الشجاعة الكافية لكى يعيش حتى يبلغ مستواها . قليل هو الذى تمكن أن يقال لمثل هذا الرجل . ومن الأفضل لو انه غير عاداته ومعتقداته بطريقة تجعل هناك تجانسا بينهما .

ثم يأتى بعد ذلك دور الرجل الذى يرفض ضميره المتيقظ كثيراً مما تعلمه فى المدرسة الأولية ، ولكن عقله الباطن يظل يقبلها فى جملتها . مثل هذا الرجل سيغير خط سيره فجأة تحت وطأة أية عاطفة قوية ، وخاصة إذا كانت تلك العاطفة هى الخوف . وقد يتسبب مرض خطير — أو حدوث زلزال — فى أن يندم ويأسف ويهجر المعتقدات التى اكتسبها بمجهوده العقلى ، نتيجة لتدافع المعتقدات الصبيانية . وحتى فى الأوقات العادية ، فإن سلوكه سيكون مقيداً . وقد تتخذ هذه القيود شكلا غير مرغوب فيه ، فهى لا تمنعه من أن يتصرف بطرق تنظر إليها التقاليد الأخلاقية بارتياب ، ولكنها تستبعد من أعماله العناصر التى تكون قد أضفت عليها قيمة . ولن يكون استبدال ناموس أخلاقى قديم بآخر جديد كافياً تماماً ، إلا إذا كان الناموس الجديد متمشياً مع الشخصية كلها ومقبولا منها وليس من ذروة تفكيرها الواعى فحسب .

إن أخلاقيات الجنس يجب أن تستمد من مبادئ عامة معينة ، ترتكن إلى الاتفاق العام — أى قبول المجتمع ـ على الرغم من التنافر أو التوافق فيما يختص بالنتائج التى تستخلص منها .

والشىء الأول الذى يخلص من علاقة الجنس بالأخلاق هو أنه يجب أن يكون هناك حب عميق جاد إلى أقصى درجة ـ بين الرجل والمرأة ـ فيغمر شخصية كل منهما ، ويؤدى إلى أن ينصهر كل منهما مع الآخر ليخرجا شيئاً واحداً غنياً ومختلفاً عن خصائص كل منهما الفردية . والشىء الثانى هو أنه يجب أن تكون هناك عناية كافية بالأطفال . عناية جسمية ونفسية . ولا يعتبر أى من هذين المبدأين مستغربا ، ولكننى أنادى بإدخال بعض التعديلات على ماتعارف عليه الجميع نتيجة لهذين المبدأين .

●

محتويات الكتاب

صفحة



يطلب من
الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع
دار المكتب التجاري ببيروت ، ومكتبة المثنى ببغداد

١٥ قرشا